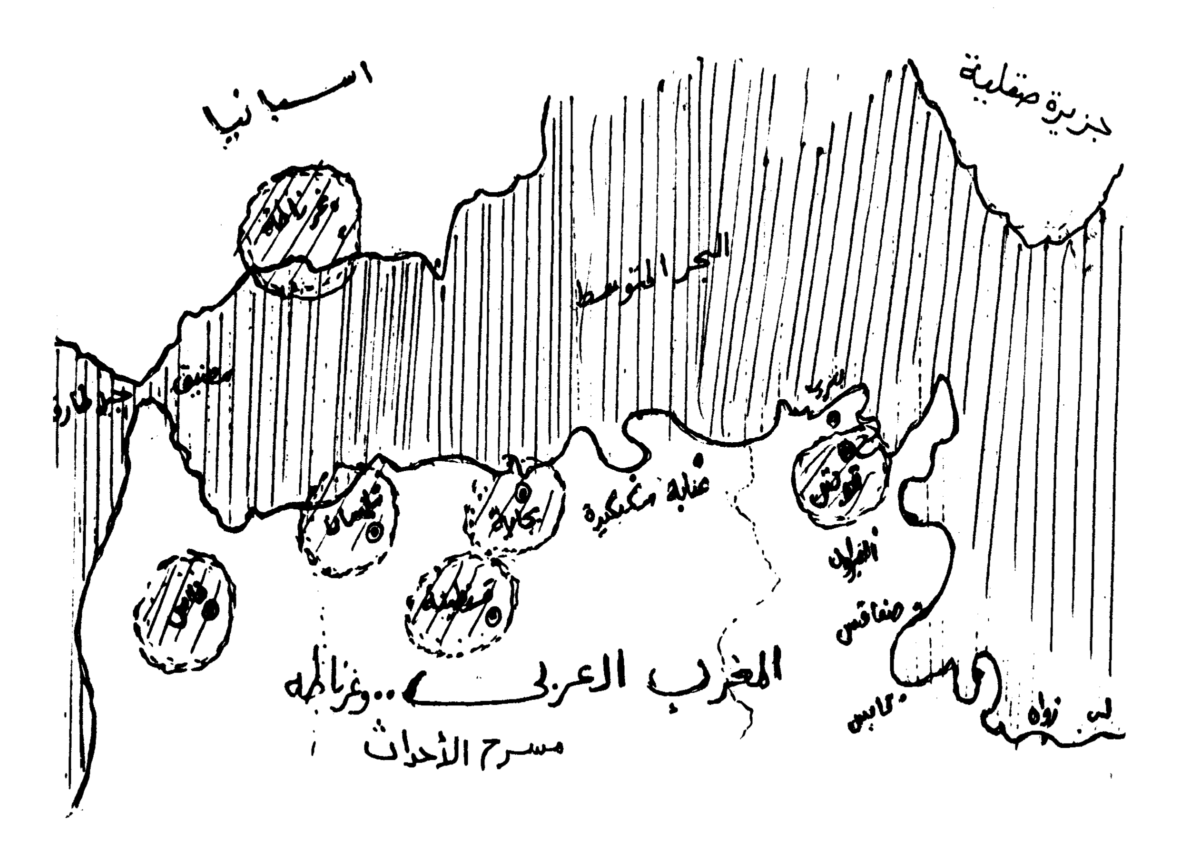
العمامة والتاج

رواية

عبد الفتاح مرسي

دراما تاريخية

*العمامة و التاج
*رواية
*عبد الفتاح مرسى
*طبعة أولى
*دفقات للنشر
الجمعية المصرية للتكوين المعرفى
ت:٥٤٨٨١٥٢
*لوحة الغلاف للرسام الروسى زفخاشتين
*رقم الإيداع:
٢١١٤٢/٢٠٠٥م


اسبانيا
جزيرة صقلية
البحر المتوسط
صفاقس
قابس
المغرب العربي .. وغرناطه
مسرح الأحداث



على سبيل التقديم

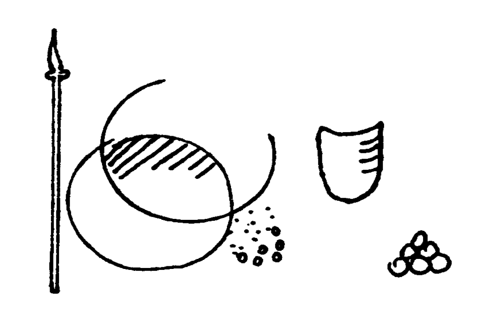
بعد عصور القوة والفتوة الإسلامية التى تمثلت فى عصر الخلفاء
الراشدين
والدولة العربية الأموية
والدولة العباسية فى فترتـــها الأولى
والدولة الفاطمية فى فترتـــها الأولى
والدولة الأندلسية فى فترتـــها الأولى
بدأ عصر الوزراء الأقوياء .المستبدين . المخاتلين.
وكانت الإشارة إلى هذا الانحطاط ..
تتمثل فى سقوط (غرناطة)،آخر المعاقل الإسلامية فى الأندلس عام ١٤٩٢م . نفس العام الذى تم لكرستوفر كلومبس،الكشف عن القارة الأمريكية.
لكن الروح الإسلامية وقد انتقلت من عنصر العرب الخلص إلى المسلمين فى كل مكان..كانت تختلج ولا تنطفئ . تتوهج على يد صلاح الدين فى مصر -ودولة المرابطين . وبعدها دولة الموحدين فى

الشمال الإفريقى . وعدد من السلاطين حاولوا .. توحيد الأجزاء وقيام دولة كبرى فى الشرق أو الغرب.

لكن سمة العصر . ظهور الوزراء المستبدون . لازم ذلك تعويضا فى ظهور العباقرة من الفقهاء والعلماء والمحدثين وصناع العروش.

كان أبرزهم فى (المغرب) ولى الدين عبد الرحمن بن خلدون .

ومن خلال حياته وطموحاته وتقلباته ، سنتعرف على عصره المضطرب . فى (دراما) متصلة المشاهد..أو مشاهد تزخر بالصراع الدرامى . فيما يجوز أن نطلق عليه (رواية) حديثة،تلتزم بالوقائع التاريخية إلى حد كبير .!!



مخلفات دولة الموحدين.. دول متنازعة

كانت افريقيا الشمالية منذ أواخر القرن السابع الهجرى مسرحا للثورات السياسية العنيفة ، وجزءٌ كبيراً من العنف فيها ينبع من طبيعة الشعب الذى أقام فى هذه المنطقة ، وحياتـــه البدوية فى الجنوب ، أو الحضرية فى الشمال ، وميل هذا الشعب إلى التقلبات والثورة.

ومعظم هذه التقلبات قد تنتهى نـــهاية مأساوية.

فقد كانت دولة الموحدين قد انـــهارت دعائمها ، وقامت على أنقاضها دويلات وإمارات عديدة --دخلت فى صراعات وحروب وقلاقل.

ففى (تونس) كان بنو حفص

وفى (تلمسان) كانت دولة بنى عبد الواد

وفى (فاس) كانت سلطنة بنى مرين

وفى ظل هذه الدول ، نشأت إمارات صغيرة فى بعض القواعد والثغور على يد الخوارج وزعماء العصبيات ، والثائرين ، والمدعين .

وكما ذكر أن شعب البربر يميل إلى تصديق الغيبيات ، فيسهل بذلك عمل المدعين بينـــهم ، وبعضهم قد يدعى الغيب أو أنـــه (المهدى) المنتظر ، أو على صلة غيبية بولى من أولياء الله . وما جاء لهم إلا ليهديهم ويمسك بيدهم لتوصيلهم إلى بر الأمان ، وتنفر مجموعة

الادعاءات عن تكوين إمارة ، أو دولة قد تتسع وتدخل فى حروب طاحنة مع جيرانـــها.

وفى (فاس) بالمغرب الأقصى . كانت أكبر الدول من مخلفات الموحدين بعد هزيمتـــهم فى الأندلس . وكان على رأس هذه الدولة التى صارت مملكة. بنى مرين - إذ كانت أكبر الوحدات وأقواها . وتشتمل على المغرب الأقصى وسبْتــه وأجزاء من المغرب الأوسط وفى أوقات كثيرة كانت تُخضع لنفوذها - جبل طارق فى العدوة الثانية بأرض الأندلس ، عندما تجهز للجهاد جيشا لمعاونة (غرناطة). وكان عميد هذه الدولة ومؤسسها هو السلطان (أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق) الذى غزا الأندلس أكثر من مرة لنجدة غرناطة . واعتبر أكبر المجاهدين ، وتوفى فى ٦٨٥هــ -١٢٨٦م.

وتعاقب بعده على عرش (فاس) عدد من الملوك الأقوياء من صلبـــه كان آخرهم السلطان (أبو الحسن) الذى تولى المُلك بعد وفاة أبيه السلطان (سعيد) فى ٧٣١هــ . وذلك قبيل مولد (ابن خلدون) بعام واحد.

وكانت نفس السلطان أبو الحسن ، تجيش بأطماع ومشاريع عظيمة ويود لو أنـــه استطاع إخضاع المغرب الأوسط (تلمسان) ، وللمغرب

الأدنى (تونس) ، لسيادة (فاس) ، فإنـــه بذلك يحقق الوحدة الكبرى التى تجيش جيشا عظيما ، يعيد بـــه فتح الأندلس ، منطلقا من آخر المعاقل (غرناطة).

وأخذ يروج له دعاتـــه فى أرجاء المغرب بذلك الحلم ليبرر بـــه أطماعه فى ممتلكات جيرانـــه • وحتى يجمع الآراء حوله لتكون فى صالحة ، قام بغزو جبل طارق فى ٧٣٣هـــ ، وافتتح موضعا هناك ، رفع عنـــه يد النصارى بالقوة ، لكنـــه لم يتوغل ويتصادم مع قوة المسيحيين الكبرى ، إذ سارع وعاد يلتفت إلى داخل المغرب.

وكان طبقا لمشروعه يود أن يمد بصره إلى تلمسان - دولة بنى عبد الواد - ثم أخذ يمد ذراعه وسيفه ، وما زال يخضع مواقعها وثغورها ويأكل منـــها ويحاصرهم وينكل بـــهم تباعا ، حتى أمكنـــه إنتزاغ (تلمسان) وإسقاط (دولة بنى عبد الواد) ، فقد دخل عاصمتـــهم (تلمسان) منتصرا وضمها إلى ملكه فى عام ٧٣٧هـــ .

ومن تلمسان ، ما كاد يبتلع ما حصل عليه ، حتى ولى وجهه نحو دولة بنى حفص فى المغرب الأدنى ، فقد تجاورت ممتلكاتـــه مع ممتلكات (تونس) وبات يتطلع لانتزاعها من أصهاره وأصدقائه:

فقد صاهر وصادق - دولة بنى حفص ، حكام تونس ، حتى يحيدهم فلا يتحدون مع تلمسان أو يكتشفون أطماعه ويعملون ضده.

وصار يطالب بتوحيد المغرب فى دولة قوية واحدة لمقاومة جيوش النصارى التى قد تــهاجمهم فى عقر دارهم إذا ما عبروا فوق غرناطة .

ووجدت دعاية السلطان (أبو الحسن) آذانا صاغية لدى جماهير المغرب من المسلمين،عربا وبربرا وموالى ومولدين،والجميع يحلمون بعودة أمجاد الماضى ، فسار إلى تونس بجيشه أوائل عام ٧٤٨هـــ .

وقد عهد لابنـــه (بو عنان) على المغرب الأوسط ليحمى (تلمسان) ويكون فى ظهره.

وكان ولى الدين عبد الرحمن بن خلدون فى الخامسة عشرة من عمره حينما تمكن السلطان أبو الحسن المرينى ، من الاستيلاء على(تونس) ونزعها من يد سلطانـــها (عمر أبى يحيى اللحيانى) ولبث السلطان أبو الحسن نحو عامين فى تونس ، ينظم شئونـــها لصالحه ، ويوطد دعائم حكمه فيها.

لكن أثناء غيابـــه عن أملاكه التى فى المغرب الأقصى والأوسط سرت الثورة ضده ، وخرجت من يده بعض الثغور حول (فاس)

رافضين طاعتـــه ، معلنين أن السلطان أبو الحسن يعمل لنفسه وليس للجهاد ضد النصارى فى الأندلس!!

كما بلغه من عيون له فى قصر تلمسان أن إبنـــه (بو عنان) يتحفز لانتزاع العرش منـــه ، تحت اغراء مراسلات تصل اليه من بطون القبائل بتأييده ، حتى يأخذ الجهاد طريقه الصحيح

وكان من أيد السلطان أبو الحسن فى جوره على جيرانـــه يؤيدونه من منطلق المصلحة العامة للأمة الإسلامية ،فإذا بـــه يكف ويتسلطن على ممتلكات منـــزوعة ليستخدمها فى إثراء ملكه ، كما أن ابنه (بو عنان) كان يخشى إخوتـــه ،ولا يرغب فى أن يرثوا الحكم طبقاً للتقاليد التى وضعها والده.

وأراد الملك فى زريتـــه وأولاده وحده . وأن لا يذهب الملك إلى أخوته فأعلن نفسه سلطاناً على (تلمسان-وفاس) وجهز جيشاً للدفاع عن أملاكه ، ولم يوافق والده على ذلك ، فأختار السلطان أبو الحسن ولده الفضل لولاية تونس،وكر عائداً بجيشه فى ٧٥٠هـــ إلى المغرب الأقصى .ليبدأ باستعادتـــه وتأديب ابنـــه الذى خرج عن طاعتـــه!

فلما غادر السلطان أبو الحسن بالقوة العظمى من جيشه أرض تونس
زحف عليها المولى الفضل ابن السلطان أبي يحيى اللحياني الحفصي
واستولى عليها ، واستعاد عرش أسرتـــه في تونس ، وكان قائد
جيشه وجيش حلفائه هو وزيره (أبو محمد عبد الله بن تافراكين).
وعندما استتب للوزير الأمر في تونس ، وأعادها ، استكثر الوزير
(بن تافراكين) على (المولى الفضل) أن يمكنـــه من العرش ، ويعود
هو وزيراً في خدمتـــه ، فطمع أن يكون (مستبداً) أي وزيراً حاكماً
وقام ومنح العرش إلى أخيه الطفل (اسحاق) إبن السلطان، وذلك
حتى يمكنـــه أن يحكم تونس بنفسه من وراء" الطفل الملك."
ويعطي لنفسه الشرعية الواجبة في نفس الوقت.
وجعل الملك الطفل في كفالتـــه وتحت استبداده ، وذلك في أوائل
عام ٧٥١ هـــ.
"وكان بن خلدون شاباً في الثامنة عشر.." منصرفاً لتلقي علومه في
تلك المرحلة المتأججة من العمر. يشاهد ما حوله وينفعل



ولى الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون وأسرته

ولد (بن خلدون) فى تونس .بغرة رمضان سنة ٧٣٢هـ ٢٧ مايو سنة ١٣٣٢م - فى أسرة أندلسية ، نزحت من أشبيلية إلى تونس فى أواسط القرن السابع الهجرى .

واسمه بالكامل "ولى الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن خلدون" .

عاشت أسرتـــه فى (أشبيلية) وتركتـــها مرغمة علي أثر سقوط المدينة عقب هزيمة الموحدين أمام ملك قشتالة ألفونس الثامن.

وقد درس (بن خلدون) على يد والده الشيخ محمد وعلى مشايخ عصره الذين اكتظت بـــهم مدينة تونس ، مثلها مثل الأسكندرية التى حط بـــها العلماء والفقهاء الناجين من أرض الأندلس ، التى تتقلص مساحتـــها فى يد المسلمين ، وقد آثر والده أن يبعد أولاده عن السياسة وتقلباتـــها .

إذ كانت السياسة مرآة لعصر سمتـــه الإضطراب والتحولات السريعة. وكان لأسرتـــه عددا من التجارب القاسية التى عانى منـــها آبائه وأجداده . فأصابتـــهم مؤامرات القصور والعروش ببعض النكبات. خاصة وقد قتل جده (محمد) وصودرت ثروتـــه.

وقد تنسب (بن خلدون) إلى العرب اليمانية فى حضر موت.
من سلالة (وائل بن حجر) . غير أن الشك يحيط بنسبـــه العربى نظراً للظروف التى أحاطت بالخصومة والتنافس بين العرب والبربر من جهة.. والعرب والبربر . المولودين بالأندلس من جهة أخرى . وإنفراد العرب بالرئاسة والإمارة ، حتى اضمحل شأن العصبة العربية وبدأت غلبة البربر والمولدين عليهم منذ بداية قيام دول الطوائف بالأندلس ، فى (بداية القرن الخامس الهجرى) ،عقب موقعة الزلاقة على يد المرابطين ودولتـــهم القوية التى تقوم على عصبة قبائل البربر وبطونـــهم ..
وبعدها قامت دولة الموحدين أيضاً على قبائل البربر .. وبذلك فقد العرب الكثير من مكانتـــهم الرئاسية. وتبقت لهم المكانة الشرفية يرغب الجميع فى الإنتساب إليهم ، وإلى أن تكون لهم مكانتـــهم الروحية ، وذلك التقدير المزمن فى قلوب بربر (صنـــهاجة وزناته) للعنصر العربى .. كان مبعثه الإيمان الشديد بالإسلام.
وقد إستمرت عائلة - ولى الدين عبد الرحمن بن خلدون بأشبيلية طوال عهد الدولة الأموية ، . لكن دون زعامة أو رئاسة تذكر حتى كان عهد الطوائف وإستيلاء « بن عباد » على أشبيلية . بعدها سطع

نجم (الأسرة) وترقى بعض أفرادها إلى مراتب الرئاسة والوزارة فى دولة ابن عباد.

وشهد عدد من حدوده موقعة الزلاقة الشهيرة التى انتصر فيها (ابن عباد) وحليفه (يوسف بن تشفين) الزعيم المرابطى على ملك قشتالة الفونسو السادس -٤٧٩هـ -١٠٨٦م واستشهد عدد من أهله فى هذه الموقعة.

ثم تقلصت دول الطوائف أمام قوة حلفائهم (المرابطين)، والذين اعتبروا الإمارات الأندلسية امتدادا لولايتهم فى المغرب. والأمراء هناك، عمال لهم.

يعزلونهم ويعينونهم كيفما شاءوا، وقد تناسى (المرابطين) أنهم حلفاء الأمس، ولم يعد يذكروا إلا أن (نصرهم) فى الزلاقة هو الذى أبقى على أرواح الأمراء وثرواتهم.

وكانت اشبيلية وغرب الأندلس من نصيب (أبو حفص) زعيم قبيلة هنتاتة، تحت راية المرابطين وسلطانهم يوسف بن تشفين، وتوارث (بنو حفص) الولاية على اشبيلية، فاتصل بنو خلدون بالولاة الجدد واستعادوا شيئا من مكانتهم ومناصبهم.

ولما اضمحلت دولة (المرابطين) أمام صعود دولة الموحدين وزعيمها (محمد بن تومرت) اضطربت الأحوال فى الأندلس . وانكشف ضعف الولايات والمدن نتيجة لمؤامرات ملوك الطوائف وتآمرهم مع النصارى. ومرة أخرى يستنجد بعضهم بالموحدين ،بعد أن بدأت المدن والقلاع تسقط تباعا فى يد ملك قشتالة .

لكن الموحدين يهزمون.

وهنا ينـــزح الأمير الحفصى (أمير اشبيلية) أبو زكريا حفيد أبى حفص زعيم هنتاتــه .. إلى تونس عام ٦٢٠هــ -١٢٢٣ م وقد خلع طاعة الموحدين من (بنى عبد المؤمن) ودعا لنفسه أميرا على تونس وأمكن له بما لديه من مال وأنصار ، أن يتغلب عليها ،وينصب نفسه أميرا لها (على أرض المغرب الأدنى) ،وخشى بنو خلدون سوء العاقبة وهم من حلفاء بنى حفص ، فغادروا اشبيلية قبيل وقوعها فى أيدى المسيحيين . ونزلوا فى (سبتــه) على العدوة المغربية ، لدى حاكمها الحفصى ، ثم لحق الجد الرابع لابن خلدون بالأمير أبى زكريا الحفصى فى مدينة (بونة) فأغدق عليه من عطفه ونعمتــه.

لكن الأمير زكريا يتوفى . ويخلفه ابنــه (المستنصر) فولده (يحيى) فأخوه (بو اسحاق).

وبنو خلدون خلال ذلك لا يفقدون شيئا من نفوذهم وجاههم حتى كان عهد (بو اسحاق).

فى عهد (بو اسحاق) تولى (محمد) الجد الثانى الأعلى لولى الدين عبد الرحمن بن خلدون، شئون الدولة فى تونس، كما تولى الجد الأول، شئون الحجابة (الوزارة) لابى فارس، ولد اسحاق وولى عهده. وكان قد اشتغل حاكما لمدينة (بجاية) وضواحيها. ثم اضطرب ملك بنى حفص.

ذلك عندما خرج عليهم زعيم ثائر يدعى (ابن أبى عمارة) وناهض حكمهم. وأمكن أن يجمع حوله عددا كبيرا من المؤيدين وجيشا تمكن أن يحقق به عدد من الانتصارات فى وقت قليل، فدانت له (تونس) واعتقل (الجد الثانى-محمد) وقتله وصادر أمواله.

ولكن (الجد الأول-محمد) الذى عمل لدى أبى فارس فى بجاية، أفلت من الموت وخاض غمار المعارك التى نشبت يومئذ بين (بنى حفص) وأتباع (ابن أبى عمارة).

وبقى جد (ولى الدين عبد الرحمن) يتقلب فى ظل (بنى حفص) ويعمل عندهم فى السراء والضراء. حتى تغلب على (تونس) زعيم

من بقايا الموحدين - هو الأمير (أبو يحيى اللحياني) وكان ذلك في عام ٧١١هـ .

فقرب إليه - محمد بن خلدون - الجد الأول . وولاه الحجابة (الوزارة) حينا حتى قرر الاعتزال والانصراف عن الحياة العامة . وكان ذلك ضيقا بالمؤامرات والوشايات التي كانت سمة حياة القصور.

كما كان قد ضاق وأرهق ، ففضل أن يبتعد ، وبقيت له مكانته ونفوذه في الدولة ، حتى توفي سنة ٧٣٧هـ . وكان عمر حفيده (ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون) وقتها خمس سنوات.

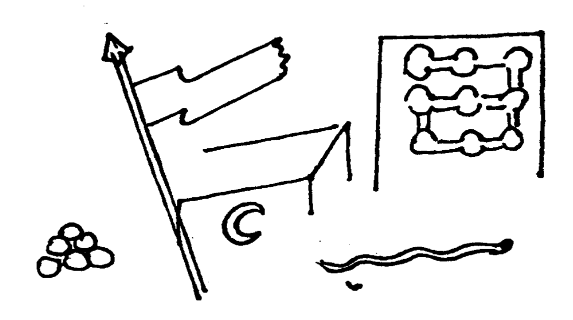
أما والده (محمد) فقد زهد في الحياة السياسية . ولعله قد رأى ما كان يعانيه والده واستمع إلى نصيحته. كما استمع إلى سلسلة النكبات التي حاقت بالاسرة لاندماجها الشديد في الصراعات بين القوى السياسية المتنازعة في ذلك الحين ، فآثر حياة العلم.

وقام نتيجة لتجربته الشخصية بتوجيه أولاده إلى العلم والتفقه في شئون الدين ، لما يحيط رجل الدين من احترام وتبجيل رغم قلق العصر!

ويتبحر والد (بن خلدون) فى الفقه والشريعة وعلوم اللغة ونظم الشعر ، ويتعهد ابنــه (ولى الدين عبد الرحمن) بعنايتــه لإعداده فقيها ، يستوعب العلوم ويقوم بتدريسها.

وفيما يبدو أن والد (ابن خلدون) كان عالما ناقلا وليس مفكرا . فإنــه لم يترك آثارا تدل على (عبقرية) ما ، و لم يتحدث بن خلدون عن كتب قام والده بتأليفها ، إلا أنــه تأدب على يديه ، وأحسن فى ترسيخ مبادئ هامة فى ذهن الصبى ، كان لها الفضل فى تأسيس شخصية (ابن خلدون) . التى انعكس عليها بشدة ما كانت تموج به تلك الأيام من أحداث ، كان لها أبلغ الأثر ، فى اظهار نظرتــه المتفلسفة ورؤيتــه الخاصة لأحداث عصره . وتاريخ شمال افريقيا . وآخر أيام المسلمين فى الأندلس.

لكن ما يدهش حقا . أن شخصية (ابن خلدون) ذاتــها وما مر بــه شخصيا من أحداث وما شارك فيه من ثورات ومؤامرات إذا ما اقتربنا منــها وتفحصناها ،تتبين أن شخصيتــه ما هى إلا نتاج عصر مضطرب . لا يمكن إلا أن تكون كما قدمها بنفسه فى تاريخه ، ومقدمتــه ، التى أسست علم الاجتماع قبل ظهوره فى الغرب بمراحل وسنرى أنــها شخصية جديرة بالدراسة والتأمل..



من النكبة إلى النصر .. نافذة يطل منها على رغباته

في تلك الأيام ، أنتشر الطاعون في أرجاء المغرب ، أو ما يسمى بالفناء الأعظم ، وقد ضرب الدول الإسلامية شرقاً وغرباً..من سمرقند حتى فاس.. واستمر الوباء من ٧٤٩ - ٧٥٩ هـ وفيه مات خلق كثيرون.

وأصيبت كل عائلة في عوائلها وأولادها . وفيه توفي والد بن خلدون ووالدته ، وعددا من شيوخه وأقرانه ، وأصحابه. وفيه هرب الناس إلى المغرب الأقصى ، لكن الطاعون كان يلاحقهم ويفنيهم كريح مسمومة تطاردهم .

وتلقى بن خلدون تلك النكبة وخاصةً وأن أعداداً كبيرة من سكان تونس ، كانوا قد ماتوا ، فتعذر عليه مواصلة الدرس في تونس أو البقاء فيها .

رأى ضرورة الرحيل غرباً ألى (فاس) ، لكن شقيقه الكبير اثناه عن ذلك ، فزهد في الدنيا ، واندمج في حالة من حالات التصوف والشفافية ، حتى صار يخاطب أشباحا لا يراها أحد إلا هو ، يبثها آلامه و لو اعج نفسه ، ودفعه الزهد في حضارة تونس إلى أن يتوغل في الصحراء جنوباً ، ليعيش بعض الوقت عيشة النساك، ثم يعود إلى تونس مؤيداً في ارتياد مجالسها ونواديها التي اختلفت اختلافاً بيناً عما كانت عليه قبل انتشار الوباء.

و لم يمض وقت طويل على هذه المحنة التى هزت كيانه ، حتى استدعاه الوزير (المستبد) أبو محمد بن تافراكين حاكم تونس الفعلى، وعرض عليه رغم حداثة سنه ، منصباً فى قصر السلطان الطفل..

ولعل (بن خلدون) قد رأى بثاقب فكره أن المستبد يولف حوله البيوتات الأصيلة فى تونس لاكتساب حالة هدوء حول استبداده الذى لم يكن خافياً على أحد ، ومع ذلك فهو لم يكن أكبر أخواته. كان المستبد يرى أنه أعلمهم وأذكاهم - وقد لا يكون للصغير من أولاد (بن خلدون) أى أطماع جسيمة على استبداده - وبدون تفكير طويل من ابن خلدون ، قَبِلَ تلك الوظيفة ، بأن يكتب العلامة السلطانية نيابةً عن السلطان المحجور عليه ، والذى لم يبلغ مرتبة الغلمان.. وفى نفس الوقت ، يؤدبه ويعلمه ويقوم بكتابة الخطابات والرد على المكاتبات ، ضمن عدد من الكتبة.

كان (بن خلدون) يدرك أن هذه الوظيفة ، قليلة الشأن وكل ما يميزها أنه سيكون بها قريباً من الحكام ، لكنه رأى بعين أحلام الشباب ودرايته المبكرة بالظروف التى مرت على أسرته بالأندلس والمغرب ، أن الباب قد انفتح قليلاً أمامه ، أو صار يمكن فتحه على مصراعيه بشىء من الحنكة، ليدلف إلى ميدان السياسة ، التى كثيراً ما حذره والده منها ومن تقلباتها.

لكن الفتى ، كان لا يستطيع أن ينسى أن من أسرته من كان وزيراً أو رئيساً للوزراء ، وأراد أن يستعيد أمجاد بنى خلدون كأصحـــاب جاه ونفوذ.

وكان على حداثة سنه ، يرى أن الأوضاع فى المغرب قد غرقت فى المؤامرات والدسائس ، والمصادمات والأطماع، وأتت إلى العروش بمن لا يستحقونـــها ، فلماذا لا يغتنم الفرصة ويختطف لنفسه عرشاً أو إمارة ؟ أو يقبض على منصب خطير ، يجعله المتحكم فى دولة من هذه الدول التى تقوم وتزدهر ، وسريعاً ما تكبو لقصور فى خـــيال حكامها ،أو إطلاق طموحهم بدون قيد ، فيلقى بـــهم إلى التهلكة..!

وكان الفتى إذا ما استعرض الفرص التى لاحت لآبائه من بنى خلدون لرأى أنـــهم تغاضوا عن كثير منها ، وكان فى إمكان كثير منهم أن يستغلها ويصيرون ملوكاً يشار إليهم بالبنان.

لقد أتت تحذيرات والده بالابتعاد عن السياسة وقصور الحكام بعكس ما كان يرغب ، إذ لفتت نظر الفتى إلى السياسة بأكثر ما جـــعلته يتجاهلها ، بل أراد أن ينغمس فيها ويلعب دوره كاملاً .

وقد شغف (بن خلدون) بقراءة التاريخ والاستماع إليه، فألم بتاريخ الفتح الإسلامى للمغرب وتعثره ، وألم بتاريخ قبائل البربر وقيـــام وسقوط دول البربر التى تقوم على الحماسة الدينية ، أو بعث المهدى

المنتظر ، وذلك أثار فى ذهنه كثير من الأسئلة ، ألقاها على نفسه وحاول الإجابة عليها ، وألقاها على شيوخه ، وربما لم يقنع بكثير من الإجابات الجاهزة ، التى كانت سمة النقل وحفظ العلوم،وكلما نقلت لا يزيد فيها بل ربما تنقص ، وتتقلص.!!

لم يكن أحد يتعرض للأسباب والعلل، العقلية والواقعية التى تمسك بخناق الدول ، فى نشأتــها وعمرانــها .. ثم فنائها وانــهيارها لتبدأ دول جديدة على أنقاضها.

سريعاً ما تخلص الفتى من نكبته الشخصية ، ليندمج فى سلسلة من النكبات العامة ، يفسرها ويبحث عن المحرك الرئيسى فى اندفاعها أو توقفها و موتــها.

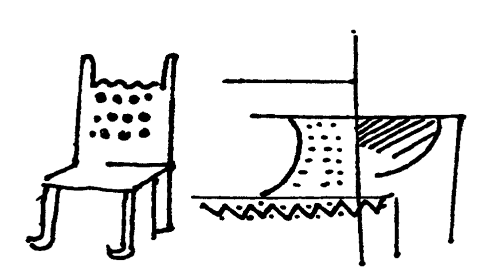
هل الدول تمر بنفس أطوار الإنسان ، فتوة وشباب ثم كهولة وحكمة ثم شيخوخة وتناقص ، حتى تُنجب من صلبها من يعيدها شباباً أو تنتقل إلى غيره ..؟

الكتب والعلوم فى خزائن قصور تونس تدعوه أن يبحث عن إجابات لأسئلته الحائرة.

لقد صار له راتب ومخصصات ،وصار من الناحية الشكلية جليساً للملك وقريباً من عرش ، ورأى كيف يداهنون المستبد ، وكل المقاليد فى يده ، وهو يداهن صبياً لا حول له ولا قوة.

- لكنه الشرعية التي يحكم من خلالها .. والتي من خلال لحظات الطاعة القصيرة ، وإبداء كثير من الاحترام الزائف، يقوم بتنفيذ اراداته ورغباته!

وابن خلدون تبدأ ملاحظاته الحية، تبرق في ذهنه الماسات التي تتناثر في كومة من الروث والأشلاء، وما عليه إلا أن يتحـــمل قدراً من المخاطرة ، يمد يده ويلتقط هذه الماسات التي يمكن أن يصنع منها قلادة ، تزين صدر العلوم والمعارف . ابن خلدون في هذا الوقت لم يكن يعمل من أجل العلم بل كان يحركه شيطان نفسه!



محاولة لإقناع نفسه بالعمل مع وزير مستبد

كانت الثورات والإنقلابات السياسية تتوالى ، يأخذ التحاور فيها صورة المعارك والمصادمات أو المناوشات القاتلة . على أرض المغرب. دائمة الفوران ، ولا تنقطع أخبارها ومآسيها!

والدول تتعاقب فى فترات قصيرة كأنه الجنون!

. القتل وسفك الدماء ، صار سمة قيام وانهيار الدول والعروش وكانت إمارات صغيرة تقوم وتكبو ، متعاقبة فى القواعد والثغور، فى الجبال،وعلى أطراف الصحراء ، مثل (بجاية).. (قسنطينة)..(بونة) .. (تلمسان).. بل وفى الصحراء جنوباً .. تقوم الإمارات ثم تختفى وتزول.

وكانت (عروش) المغرب يومئذ تهتز وتضطرب فى يد الأقدار والمغامرين ، وكل من يملك قوة ، أو دهاء ، يمكن أن يخدع أو يستميل القبائل، وما أكثر الشيوخ الطامعين فى المزايا بتلك القبائل،بل أن حياة عدد من هذه القبائل كانت تقوم على تلك المحالفات.. يحصلون على الثمن ، وينقلبون إلى أمير آخر لبيع ولائهم لمن سيدفع أكثر، فيخلع الولاء كما تخلع العاهرة ثوبها بلا حياء.

وربما فى هذا الوقت المضطرب راح (بن خلدون) يحدد خططه المستقبلية، وكيف يحصل على نصيبه الذى يحدده ذكاءه ودهاءه، فهو لا يملك القوة .. أو العزوة الكبيرة ، لكنه يُقدر ما يدور فى عقله.

وقد بدأ مسيرته بتوثيق صلته بقبائل الصحراء ،التى تحترم رجال العلم الفقهاء وتجلهم ، وهم من بقايا المرابطين.

هو وإن قبل العمل عندما استدعاه الوزير المستبد (بن تافراكين) كان يقنع نفسه بأنه يسير على نـــهج آبائه ويعمل لدى (ملك حفصى) كانت أسرته حليفةً لهم منذ أيامهم فى (أشبيلية).

إلا أنه لم يكن راضيا تماماً عن عمله ككاتب بالقصر، إذ أن هذه الوظيفة لا تؤدى إلى (الحجابة) وقيادة الجيوش وتوجيهها، فآثر أن يستزيد بالعلم الذى انقطع عنه ، ويكون من رجالات الفكر، وليس من كتبة القصور ـ مهما كانت القصور مطمحاً لكثير من أبناء العائلات ـ وكل وظيفة فيها تعنى تقديرا خاصاً وشرفاً لمن يشغلها ولأهله..

كما أن هذه الوظائف ترتبط باستمرار الملك الحاكم، فعندما ينقلب أحدهم عليه يقوم بطرد كل العاملين فى تلك الوظائف .. وتعيين رجال من العائلات التى تؤيده ، فصارت مطمعاً من مطامع المتغلبين بل أنـــهم قد يمنون بـــها أنصارهم قبل وصولهم إلى التغلب على الدولة القائمة!

ورأى الفتى كيف يُزيف التاريخ للأمراء المتغلبين ، فيأتى الكتّاب ويسجلون ما ليس لهم!

كما رأى الفتى أن التمسك بالأخلاق فى أجواء القصور من رابع المستحيلات ، فإن المبدأ السائد فى هذا الخضم ، كان واضحاً ولا يوجه له أحد بالنقد المعيب "الغاية تبرر الوسيلة".

فكان عليه أن يدع ما تعلمه على أبواب القصر ، إذا ما دخل إلى حاكم ، وأن يتحلى بالمخاتلة والنفاق فى ذلك الزمن متعدد الوجود.

هكذا تكون أيام الضعف ،إذا كنت بين الذئاب فلا تتردد فى نـــهش فريستك قبل أن تنهش قلبك!

وبعدها يمكن أن تغتسل وتتعطر وترتدى أفضل ملابسك وتتكلم بنعومة ، وتستخدم الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، للتأثير والاستحواذ على الأفئدة ، فإن فترات السلم قليلة ، وفيها تتنافس القصور والعروش ، الملوك والأمراء فى جلب العلماء والفقهاء والشعراء يعبرون بعطاياهم وبذخهم الشديد - عن كرم زائف وأصالة مفتقدة - وحتى يجتذبون إلى قصورهم رجال الفكر والأدب.

وهنا يتسابق الشعراء فى نظم القصائد،وفتح جيوبـــهم للعطايا ،ثم يلعنونـــهم وهم على أبواب الخروج!!

وكان"بنو حفص". و"بنو مرين" على الأخص ، ملاذ العلماء والأدباء والشعراء ، يستظلون بظلهم،ويتقلبون فى نعيمهم،وقد يسقط بين

يدى أحدهم منصباً هاماً ، إذا ما ساعده الحظ ، فيصير صاحب نفوذ وثقة.

وقد لاحظ بن خلدون أن الحركة الفكرية تزدهر وتستقر ،أو تضعف وتضمحل ، طبقاً لأحوال الدول وتقلباتـــها ، ولا لوم على العلماء، فقد ارتبطت حياتـــهم ومستوياتـــهم صعوداً وهبوطاً ،بتلك الدول. وبالتحديد بوزراء وملوك وأمراء فيها ،فما يكاد العلماء يحتشدون حول قصر أو عرش معين ،حتى تنتابه نكبة ،فيحولون اتجاههم إلى الأمير أو السلطان المتغلب،وسوف يجدون ما يقولونه فيه..!!

حتى أن حركة العلماء كانت تتحرك وتعبر المضيق إلى عرش غرناطة إذا ما ازدهر ، ثم تعود إذا ما ضاقت أحواله ، إلى أرض المغرب تسعى بين الأمراء والسلاطين فيه..



ابن خلدون يؤثر العيش في ظل الدولة القوية

في هذا المعترك ، بدأ بن خلدون حياته العامة ، وفي ذهنه تتقلب كثير من الطموحات والمطامع ، يتمنى لو أنه صار في معية "بني مرين" وهو يرى بعين علومه ، الضعف الذى يمضى إليه عرش تونس ،وقد تابع صعود قوةً ونفوذ السلطان (أبو الحسن) ،والإنقلاب عليه .

وقد غادر تونس وفي ركبه معظم المفكرين والأدباء والعلماء من شيوخ بن خلدون وأقرانه، وقد أصابهم من السلطان المريني الكثير من العطايا وسعة الرزق.

هنا يؤثر العيش في ظل الدولة القوية الظافرة، بعد أن ترنح عرش تونس الذى كان زاهراً ، وقد بدأ في الذبول ..

وكانت مثل هذه الأمنية تجيش في نفسه ، لكن أخ كبير له كان في مقام والده، أخذ يثنيه ويحذره عواقب التقلب ، ويذكره بارتباط الأسرة ببني حفص في السراء والضراء.

وكان الرد جاهزاً على لسان ولى الدين عبد الرحمن ..

" لقد نكث السلطان أبو الحسن بأصهاره وأصدقائه وطمع في ملكهم وما بين أيديهم، وهو السلطان.. وما أنا إلا فرد من الرعية.. يبحث عن واسع الرزق .. لا تضيّعها علىّ ولا على أسرتنا"

بمقياس العصر وقيمه السائدة بين العلماء ، لم يكن هذا الموقف معيباً. إذ أن جماعة العلماء تمارسه بصورة اعتيادية فى ذلك الزمن، وسوف يمتد إلى الأزمان التى بعده..!!

.. لم يمض إلا قليل من الوقت ، حتى سنحت لابن خلدون الفرصة التى كان يصبو اليها..

ففى اوئل ٧٥٣ هـ زحف أمير قسنطينة (بو زيد) حفيد السلطان بويحيى اللحيانى الحفصى ، فى قوة من أتباعه مدعومة بقبيلة تناصره وهاجم تونس ، يريد رفع يد الوزير المستبد (بن تافراكين) عنها . واسترداد تراث اهله، واضطر (بن تافراكين) أن يحشد جنده للدفاع عن تونس ، وكالعادة ، فالعلماء واصحاب المناصب سيتطلعون إلى الكفة الراجحة ،خاصة عندما وقعت بين الفريقين عدة معارك ومحاصرات. ورأى بن خالدون وهو الموظف بقصر الملك اسحاق والوزير المستبد، أن الريح لا تعضد من يعمل فى قصرهم ، فبادر قبل أن يتم لأمير قسنطينة كامل الفتح ، وأنسل خلسة من المعسكر الذى سيهزم ناجيا بنفسه .

وذهب الى (أبه) فى الصحراء ، عند بعض شيوخ المرابطين ، وكان على علاقة بهم اثناء سفرته فى الصحراء أيام الوباء ، ومن (أبه) قصد أقصى الغرب ، ووصل الى (سبته) ، مكث فيها شهراً عند

حاكمها الحفصى ، ثم ارتد الى (قفصة) بعد أن علم بتجمع عدد من العلماء الذين فروا من تونس إليها ، يترقبون ما ستفسر عنه الأحداث وعندما تحرك رهط العلماء الى (بسكرة) مضى معهم وأنفق فيها الشتاء ، وقد نزل ضيفا على أحد الأثرياء الذين يعضدون بني حفص فأحسن وفادته ، و وجد عنده جملة من الكتب النادرة ، فاستغرق شهور الشتاء فى مطالعتها ، ومجالسة هذا الكبير ، يناظر الذين يغشون مجلسه ، فلفت نظر الرجل والعلماء الذين أشادوا برجاحة عقله..

وكان لدى هذا الكبير ابنة ، استمعت إليه ,وشاهدته عن قرب فمال اليها الفتى ، ومالت اليه. وعندما حدثوه عن الزواج ، ابلغهم عن حاله ، وهو الذى لم يستقر بعد . كما أنه إذا أنتظر الاستقرار فلن يحصل على زوجة طوال حياته .

تبسم الكبير وأشار أن يعرض على ابنته الأمر ، ومع أن الرجل أبلغها أن الشاب الذى تقدم لها مطاردا ،فقد وظيفته ، ولايعرف له مستقراً ، وكل ما لديه علمه الذى فى رأسه ،والذى يطلب الاستزاده فيعيش من أجل ذلك فى تقشف. ومع ذلك ، فالفتاة لم تعارض وكان صمتها تعبيراً عن الموافقة ، وأمكن للرجل الثرى أن، يحل للفتى مشكلة الإقامة ، إذ منحه منـــزلا فى ضيعته ، دخل فيه على زوجه . وبانقضاء الشتاء وبداية الربيع ، كانت زوجته قدحملت فى ابنه الأول

وكان قد فرغ من قراءة خزانة الكتب ، ودون كثيرا من الملاحظات والردود على ما رآه لا يسير طبقا لما فكر فيه وتخيله ، وحفظ فى ذاكرته كثيراً من الوقائع والأحداث ، متصورا لأسباب وقوعها...!

وفى تلك الأيام كان السلطان (ابو الحسن الماريني) ملك المغرب الأقصى والأوسط ، أثناء صراعة مع ولده (بو عنان)قد وافاه الأجل فى ربيع الثانى ٧٥٢ هـ

وصار (بو عنان) بلا منازع ، سلطاناً على فاس، وتطلع إلى استعادة (تلمسان) التى انتزعها أبوه من (بنى عبد الواد) ، واستعادوها منه اثناء نشوب الصراع بينهما.

فزحف عليها (بو عنان) فى اوائل٧٥٣ هـ واستولى عليها وقتل ملكها(بوسعيد) .

ثم استولى على (بجاية) بدخول صاحبها(بوعبدالله محمد) فى طاعته وكان بن خلدون لا يزال فى (بسكرة) ،ينعم بالزواج والقراءة فى ضيعة حموه الثرى ، فعزم على السعى للقاء السلطان (بو عنان) أثناء مقامه فى تلمسان.وآثر ألا ينتظر الذهاب مع رهط العلماء التوانسة. كان يريد أن يلقاه وحده ، ويلقى أمامه بكلمته وقصيدته ، وكان يأمل من وراء هذا اللقاء الكثير ، إنه اللقاء الذى كان يحلم به وعاتبه

عليه شقيقه الكبير ، كيف يعضد بنى مرين ويخلع ولاء أسرته لبنى حفص ؟

ولم يكن ما يبغيه مكرمة ، تعطى لأى شاعر أو عالم يسعى إلى أعتاب السلطان ...

كان يأمل فى الكثير ، وتم اللقاء بينه وبين السلطان .

لم يكن أبا الحسن القوى، ولكنه إبنه الأقوى ؛ فأكرم وفادته بما أرضاه وميزه بأكثر مما تخيل ، ورده مع وزيره (الحسن بن عمر) إلى (بجاية) ليشهد هناك مراسيم البيعة والتسليم من أميرها السابق أبو عبد الله بن محمد الحفصى، إذ سلم المدينة سلماً.

وأثناء الطريق ، يتآلف مع الوزير (الحسن بن عمر) ويتصادقا.

فقد أعجب كل منهما بالآخر ، وكل منهما بحث عما فى خصال الآخر وتتفق وخصاله ، ووجد كلاهما فى الآخر صديقاً ودوداً مع تقدير كل منهما لعلم الآخر ، ومعارفه وآرائه.

وفى قصر من قصور (بجاية) سكن بن خلدون وزوجه وإبنه الوليد.

حتى أوائل عام ٧٥٤ هـ معززاً مكرماً ، يقرأ ما فى خزائن "بجاية" من كتب ، ويدون ملاحظاته ، لكن دون إسناد وظيفة محددة له، ورأى بن خلدون أن الوقت الذى ينصرم ليس فى صالحه . وأنه معزول فى

[بجاية] بعيداً عن العاصمة الكبرى "فاس" والقصور فيها تمتلئ بالعلماء وتوزع عليهم الوظائف.

ونفس بن خلدون وثابة قلقة ، ومع وجود الوزير الصديق (الحسن بن عمر) الذى يسهل له أمر المعيشة ، فإنه لم يسلم تماماً للدعة فى كنف الوزير،إذ إنه يتطلع إلى أن يكون فى بطانة السلطان (بو عنان) نفسه. وزاد من توتره،أن يعلم بأن عدداً من علماء وأدباء تونس الذين كانوا يتلقون عليه ، قد سبقوه والتحقوا بحاشية السلطان وصاروا من معيته وخاصته فى عرش (فاس).



أمنية تتحقق

لما عزم الحاجب (الحسن بن عمر) فى العودة إلى قصر السلطان فى (فاس) ، وقد انتشر هذا الأمر ، لحقت بقافلته الوفود ، تسير فى ركابه ، ٠هرع بن خلدون وأعد نفسه ليذهب معهم ، فكان قريبا من صديقه الوزير فى السير والراحة والمؤانسة.وقد أتاح له الوزير الفرصة ليكون من أوائل من يحظى بلقاء السلطان (بو عنان) الذى أكرم وفادته الثانية بأفضل من الأولى ، خاصة عندما تحدث عنه حاجبه بالخير والصدق!

هال بن خلدون أن السلطان برغم مشاغله العديدة .. كان يحفظ أبيات من قصيدته التى ألقاها عليه فى اللقاء الأول ، لكنه لم يعرض عليه وظيفة!

وعندما عاد الوزير (الحسن بن عمر) إلى[بجاية]الذى كلف بإدارة شئونـــها ، إذ أن أميرها السابق الذى ثبته السلطان فى إمارتـــها إعتقل وعزل ، نتيجة لمؤامرة استدرجته إلى خيانة العهد الذى قطعه على نفسه أمام السلطان .

عاد بن خلدون إلى[بجاية]يأمل خيراً ، وصديقه الوزير صار أميراً لها. وأستمر مقيماً معززاً مكرماً فى كنف الوزير،حتى أواخر عام ٧٥٤هـ وقد عاد إلى إلقاء الدروس ، يستعين بـــها على قتل الوقت،والتفكير فى كثير من القضايا مع مريديه.

وفى قرارة نفسه يتمنى أن يذهب إلى (فاس) عاصمة الملك المريني
ويعيش هناك بالقرب من الأحداث الكبرى،ويجد نفسه مندمجاً فيها
لافتاً الأنظار إلى غزارة علمه وآراءه السديدة.

ذات يوم ، عندما يأس ، وبدأ يشعر بالإحباط ، استدعاه (الحسن
بن عمر) وسأله عن أغلى أمنية يريد تحقيقها ، فكان صريحاً إذ قال
بلا مواربة :الإلتحاق ببطانة السلطان (بو عنان) فى فاس،وأن أحضر
مجالس السلطان فى بلاطه هناك.

فأجابه صاحبه:أبشر ، لقد تحققت أمنيتك يا أبا زيد..
ويمكنك أن تتجهز ، ستذهب إلى قصر السلطان فى فاس لتلحق
ببطانته.

وأندهش بن خلدون ، أعتقد أن الوزير يعبث به من باب اللهو،لكن
الوزير كان جاداً ، وأكد له بأن ذلك حقيقى ولا عبث فيه،فأعتقد
بأن الوزير جاء له بـهذه الأمنية التى كان يستشعرها بفراسته
وأنـها إحدى الخدمات التى يقدمها الصديق إلى صديقه دون أن
يطلبها ، حتى لا يسبب له حرجاً.
لكن الوزير أزال هذا الاعتقاد الذى كان يتمنى أن يفعله من أجله
وقال : لقد جرى ذكرك من علماء تونس مراراً ، إذ أنـهم أمام
السلطان،كانوا يستشهدون بأفكارك وآرائك إذا اختلفوا ، وبتكرار

ذكرك ، رأى السلطان أن يضمك فى مجلس عقد لاختبار طلبة العلم، وأمر أن يستدعوك على الفور لتنضم إلى هذا المجلس على وجه السرعة ،وبدون إبطاء ، حتى لا يتأخر طلبة العلم فى تلقى دروسهم!!

. . . .

قدم بن خلدون إلى (فاس) فى ٧٥٥ هـ . استقبل المدينة العريقة ولديه شعور بأنه جاء ليفتحها « هاقد جئت إليك أيتها المدينة التى تضمى معية السلطان ، ووظائف السلطنة الكبرى ، وفيما يبدو، لقد وظفت فيك قبل أن تطأ قدمى أرضك، كم حلمت بذلك،وكم تقاذفتنى المشاعر والأمانى»

تقابل مع السلطان (بو عنان) للمرة الثالثة؛ فأكرم وفادته بما يجعله قادراً على مجاراة ثراء الذين يعيشون حوله..

وذكر السلطان شيئاً من نباهته وعلمه الذى لقنه لتلاميذه،وهم علماء اجلاء يعجب بهم.

وعلى الفور أصدر مرسوماً بتعيينه عضواً فى مجلسه العلمى، وكلفه بشهود الصلوات معه، مما يعنى أنه سيقابله خمس مرات يومياً ويكون من خاصته، وما زال يدنيه ويقربه ويعجب به ويتأثر بمنطقه، حتى عينه فى العام التالى ضمن" كتّابه وموقعيه "

وقد سر ببيانه وسلاسة أسلوبه.

على أن بن خلدون وجد نفسه بين رهط من الكتّاب، وتنافسهم ولجاجهم، وإدعاء المعرفة، وهو منصب وإن كان لسلطان قوى ،فإنه سبق وشغله من قبل كوسيلة يصعد بـــها، و لم ترتح نفسه أن تنتهى أموره - فى نـــهاية المطاف - ككاتب .

إذ كان يتوق إلى منصب أكبر ، يمكن أن تبرز فيه مواهبه،منصب من هذه المناصب التى شغلها أسلافه ، ليس أقل من"حاجب"، كصديقه (الحسن بن عمر) يكلف بإدارة وإمارة المدن ، أو قيادة الجيوش والمهام الكبرى ، التى يكون لها أثر فى حياة الناس وسياستهم.

ولكى يتغلب على الضيق بمنصبه الجديد ،كان يسعى للقرب من السلطان ، بينما فى حقيقة غرضه،كان يسعى لأجل الوظيفة الكبرى، لكى تحقق له المكانة ، لذا فقد ضاقت-بتلك الحالة-نفسه،وأخذ يشغلها بالدرس والقراءة والمناقشة. انها مرحلة الانتظار غير المملة !

وكانت خزانة الكتب والوثائق فى (فاس) عاصمة ملك بن مرين عامرة بمعظم ما أنتجته قريحة كتاب المشرق والمغرب ، بالاضافة إلى الأندلسيين القدامى والأواسط، وقد آلت إلى (فاس) كتب نادرة،كما انعقدت مجالس العلم بالحاضرة الفاسية ، وكان يتواجد فيها بالرأى والدرس والاجتهاد. وإذا ما أبدى إضافات على ما كان يعرض.. كان يلفت إليه الأنظار ، فيرتبط به العلماء فى كل مكان. ومن موقعه

هذا تراسل مع (لسان الدين بن الخطيب) أحد علماء عصره ووزير عظيم فى غرناطة ، استبد بشؤنـــها سنوات ، أيام النـــزاعات.
وصار صديقاً حميماً لإبن خلدون..
ومن فاس، بتلك الفترة التى أمضاها فى معية السلطان (بو عنان) بدأ نجم بن خلدون فى السطوع ، وطارت شهرته إلى مصر ،ومضت إلى الأراضى الشامية والحجازية، وكان لا يزال فى الخامسة والعشرين،أو فوقها بقليل.
وكان ذكاؤه وصلابة عزمه يحفزانه ليطلب المزيد من الجاه والنفوذ وخاصةً إذا ما توثقت صلته بالسلطان (بو عنان) ، وتبأت السلطان من المعجبين به ، من الذين يقدرون علمه،ورأيه،ويستمعون إليه.
وهو يومئذ أعظم سلاطين المغرب ، فجعله من خاصته فى بلاطه العريض الزاهر..
لكن لم يمض عامان على وجود بن خلدون فى بلاط فاس حتى انغمس فى مؤامرة سياسية.وتم ضبطه فيها متلبساً !!



سقطة فقيه !

من أسباب سقطة بن خلدون ،علاقته القديمة بأمير (بجاية) المخلوع (بو عبد الله محمد) الذى تآمر ضد السلطان (بو عنان) والذى خضع له فأبقاه حاكماً من قبله على (بجاية) ،ولكنه نكث بالعهد فخلعه وحبسه .

أخفى بن خلدون علاقته به حتى صارت نسياً منسيا . خاصةً وهو يعيش فى كنف الوزير (الحسن بن عمر) الذى أكرمه وأفاض عليه فلم يستطع أحد أن يستشف خصوصية تلك العلاقة بينه وبين (بو عبد الله محمد) والذى كان فى الواقع قريباً لزوجته من ناحية الأم، وتكنيه بالخال، لكنهم عندما أتوا به من (بجاية) التى يتآمر لاستعادتـــها كإمارة له.. وتم التحفظ عليه فى (فاس) تمكن بن خلدون،وهو المقرب من السلطان،والذى طارت شهرته من بلاط سلطان فاس (بو عنان) ، أن يتقابل سراً بـــ (بو عبد الله محمد) برغم ما يحيط ذلك من أخطار عظيمة، لكنه استغل مكانته كواحد من معية السلطان - الذين يظهرون بصحبته.

والأمير المحبوس كان حفصياً ، وأسرة الأمير كان لها أفضال على عائلة بن خلدون ، وهو المفكر الذى كان يجب أن يدرس كل كبيرة وصغيرة وما يحيط بالأحداث من ملابسات ،وقع وقعه العبقرى عندما تستتب حوله الأمور ويظن أنه فوق الخطأ ، لكن كبوة بن

خلدون كانت شديدة الوقع،نتجت من الإفراط فى الثقة والاعتداد بالنفس ، إذ أنه التقى بالمسجون ، وحدث بينهما (تفاهم)...

وكان على بن خلدون أن يتحفظ فى علاقته بـــهذا الأمير المخلوع وقد أمنه السلطان بو عنان وقربه منه، ووثق فيه ،ورفعه إلى مصاف الكبار فى صحبته، كان عليه أن يتجاهل وجود أمير بجاية حتى تتبدل الأحول وتتغير الظروف من تلقاء نفسها،كما كان عليه أن يدرك أن هذه الممالك تقوم على التجسس والعيون،واستطلاع كل حركة وهمسة ، والشك فيها يشمل الرعية ، فما حال الأمراء الذين تم خلعهم و لم يقض عليهم بسبب ما لهم من اعتزاز عند القبائل - فيتحفظ عليهم أشبه بالسجناء، أو المحددة إقامتهم فى منـــزل ، خدمه وحشمه وحراسته والبستانى وكل ما يحيط به ، له صلة مباشرة بالسلطان وأعوانه كعيون وآذان. ومهما تنكر بن خلدون فقد كشف أمره ونقل شيئاً مما تفاهم به مع الأمير المخلوع.

كان السلطان (بو عنان) مريضاً فى تلمسان،ونما إليه خبر لقاء بن خلدون بالأمير المخلوع (الحفصى) ونقل أيضاً إلى السلطان ما لم يتحفظ فيه بن خلدون ، وعود وأمانى تنم عن تآمر أو شبهة تآمر وانقلاب. لقد تعهد بن خلدون باسترداد إمارة[بجاية] وأنه يقرأ الأحداث ،فيرى عودة بنى حفص لأملاكهم . وبجاية لأميرها . وأنه

يرى أن ملك بو عنان إلى زوال، لقيامه على غير أساس"، وأتفق مع الأمير الحفصى أن يتعاهدا إذا ما عادت إليه (بجاية) ، يتولى حجابتها وجعله يقسم على ذلك!

وقد دهش السلطان فى البداية ، ثم غضب عندما تبين أن ما نقل إليه ليس من باب الحقد على الرجل ، وأمر بسرعة القبض على بن خلدون وحبسه ، واستجواب كل من الأمير وبن خلدون منفردين.

أنكر بن خلدون التآمر ، على أساس أنه عندما تكلم ، لم يكن بالقرب منهما أحد ليسمع ، لكنه لم ينكر أنه زار الرجل من باب الوفاء ، ولأنه قريب لزوجته وخال أولاده، وأن قوة السلطان تحول بين عودته إلى بجاية مهما استعان بقوة ، فالقوة الأعظم بيد السلطان بو عنان • كان دفاعاً ضعيفاً ، ولكنه اعتمد على أن الأمير سينكر الواقعة ، وكان يمكن إذا ما أنكر (بو عبد الله محمد) واستمر على الإنكار بعدم وجود مؤامرة، وأنها مجرد زيارة للإطمئنان على صحته التى تتدهور ، لمر الأمر بسلام !

لكن الأمير السابق كان يخشى القتل ، وأن تؤخذ هذه حجة لتتخلص منه ، فانهار ، وحكى ما حدث تفصيلاً . . .

« بأن بن خلدون هو الذى جاء إليه ،وهو الذى عرض عليه،وهو الذى تعهد له ، وهو الذى قال أن مُلك بنى مرين يقوم على غير أساس ،كما تمليه عليه الأحداث من حوله... »

وهنا يأمر السلطان بو عنان بحبس بن خلدون فى أبشع سجون فاس حتى يعود ويبت فى أمره وهو فى صحة أفضل.

ويطلق سراح أمير بجاية السابق على أن يلزم داره ، لا يزور ولا يزار وقد عفا عنه السلطان لصراحته ، ولأنه لم يطلب هذا اللقاء.

ونزلت على رأس بن خلدون تلك المحنة . لتقلب مشاريعه رأساً على عقب ، مرت الأيام عليه فى السجن ثقيلة الوطأة على نفسه ،وهو فى عتاب لها دائم – كيف تسقطه التوافه؟ وتنقض على كل آماله ، وتحيل جهوده إلى سراب .. كما أنه كان ينتظر أن يتشفى فيه الذين يحقدون،وبات يخشى عتاب السلطان له،قبل أن يعرض أمره على العلماء والكبراء الذين سيصمتون ، حتى إذا حكم عليه بالموت ، نظير خيانته وهو الذى أكرم وفادته مراراً.

كان الشائع فى تلك السجون ، أن الجرائم الكبرى ،يسجن مرتكبها دون محاكمة فترة ، حتى تــهدأ الخواطر، وتتبين أثر حبسه على أهله وعزوته ، وإذا ما مرت الأمور عادية ، يخنق فى ليل ، ويدفن ،ويعلن

بعدها أنه مات حزناً..ولا يدرى بن خلدون متى يتخلصون منه بالخنق.

وقد بدأت مأساته أوئل عام ٧٥٨ هـ - ١٣٥٧ م ولمدة عامين طويلين مرهقين ، يرسل بن خلدون الرسائل ، ويقوم من تتلمذ على يديه وعرف قدره ، بتوصيل هده الرسائل إلى من يقصده .

يتضرع إلى السلطان (بو عنان) مراراً ليطلق سراحه ، ويعزى ما حدث له إلى سعاية خصومه،وخوف أمير (بجاية) السابق من الانكار فيموت.

لكن السلطان بو عنان الذى شعر بالألم والصدمة فيه،وهو العالم الذى أعجب بأقواله وتفكيره ، كان قد أعرض عن كل تضرع وشفاعة تأتيه من العلماء، ومنهم صاحبه وزير غرناطة (لسان الدين بن الخطيب) ، وله مكانته العلمية والأدبية والسياسية ...

حتى رفع بن خلدون قصيدة طويلة إلى السلطان فى نحو مائتى بيت يلتمس فيها عطف السلطان وصفحه .. جاء فيها

"على أى حـــال لنيالى أعاتب
وأى صروف للزمـــان أغـــالب
كفى حزناً أنى على القرب نازح
وأنى على دعوى شهودي غائب

وأن على حكم الحوادث نازل

تســـالمنى طوراً وطوراً تحارب

سلوتـــهم الإذكـــار معـــاهد

لها فى الليـــالى الغابرات غرائب

وأن نسيم الريح منهم يســـوقنى

إليهم وتسوقنى البروق واللواعب "

وأخيراً وقعت القصيدة بتأثيرها فى نفس السلطان !!

كان يومئذ لا يزال مريضاً فى تمسان . تفكر قليلا ثم تبسم فيما يأتى به الشعراء ، من شطحات ، وقال لوزيره (الحسن بن عمر) -

- إذا ما عدنا إلى فاس ، ذكرنى بأمر هذا العالم الشاعر التعس، لعل هذه الفترة التى أمضاها فى سجن فاس قد منحته الدرس.

وتنفس (الحسن بن عمر) الصعداء ..

وقال: "أخيراً صفحت يا مولاى ، لقد كان قلبك ثقيل الباب وموصد، نحمد الله أنك أبقيت على هذا الرجل .. فللعلماء أحياناً عقول العصافير ولهو الأطفال ..

فالعبقرية تفقدهم الكثير من التوازن ، وإنك لعظيم أن قدرت هذا ولعل ما حدث لابن خلدون فرية محبوكة ،فإنه كان ينكر الواقعة على طول الخط ، حتى أمامى ،وأنا الذى عرفته عن قُرب"

لكن السلطان كان قد قرر العفو عنه على أن يرحل عن فاس ، ولا يبقى فى معيته ،وأن لا يذهب إلى (بجاية) التى يريد أن يكون حاجبها وأن يرسلوه بعيداً ..بعيداً .. وكأنه النفى !

ففهم الوزير أنه لا يريده فى المغرب ،وإذا ما أطلق سراحه فليختار بين غرناطة أوالمشرق!

لكن المرض اشتد بالسلطان فى تلمسان ، وتوفى قبل تحقيق الوعد .

وذلك فى ذى الحجة ٧٥٩ هـ .

وبوفاة السلطان (بو عنان) تعرضت حياة بن خلدون إلى الخطر الجسيم ، إذ أن فى فترات الانتقال لا تستقر الأوضاع ، ويتم إخلاء السجون لاستقبال سجناء العهد الجديد، وفى معظم الإخلاءات يتم التخلص من المساجين الخطرين، بحجة أن قاتلهم فارق الدنيا.

وعدم مسئولية من سيتولى الأمر بعده!

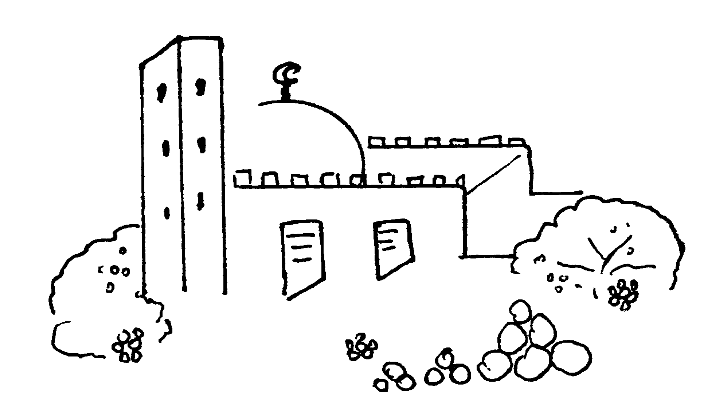
لذلك سيقوم (الحسن بن عمر) بصفته الوزير الأول الذى يمسك بالسلطنة،بسرعة الإتصال بالقائمين على أمر السجن، ويسابق الزمن حتى يعثر على بن خلدون حياً، ويأمر بإطلاق سراحة ، مع جماعة من السجناء والمعتقلين ، وقد رده إلى سابق وظائفه.

وكان على الوزير (الحسن بن عمر) أن يرفع ولى العهد (أبا زيان) إلى عرش والده (بو عنان) لكنه آثر أن يجعل الأمر لنفسه، بأن يرفع إلى

العرش . أخيه الصبى (السعيد) ، ويستبد بالدولة ، وهنا ستتحرك المعارضة ، بعض القبائل ضده، فيقوم بالإجهاز عليهم فى وقت سريع حاسم، وكأنه قد أعد للأمر عدته، يقتل بعضهم ،ويشتت الآخرين ويرغم معظمهم على الطاعة.

وابن خلدون المفرج عنه حديثاً، يعانى من آثار شهور السجن الطويلة، ولا يتدخل ،وقد اطمئن أن صاحبه فى قوة وإعتداد بالنفس. صار المستبد بالدولة ، وشرعيته أنه كفيل الصبى (السعيد) ابن بو عنان السلطان السابق. أما ابنه ولى العهد الذى اختاره السلطان، فقد هزم وابتعد.

لكن الأوضاع لم تستقر طويلاً للمستبد الحسن بن عمر . وسلطانه (السعيد) ، فسريعاً ما تدهورت الأوضاع من حيث لا يحتسب ، وابن خلدون يرقب التدهورات التى تنبأ بـها لأمير بجاية فى شئ من القلق... وشئ من الاندهاش لفراسته الحلمية !



تدهور الأوضاع فى فاس

إذا عدنا إلى الوراء - عندا انتزع (بو عنان) العرش من أبيه أبو الحسن .كان قد قبض على أخيه (المولى سالم) ونفاه إلى الأندلس [غرناطة] مع باقي إخوته ، وهو قد فعل ذلك حتى يبقى عرش والده في ذريته ، ولا ينتقل لإخوته.

فلما توفي (بو عنان) بادر (بو سالم) المنفي (خاصة وأن الوزير (الحسن بن عمر) قد استبد بالأمر عن خلف ابن أخيه الطفل السعيد) بالسعي لإسترداد العرش الذي كان يجب أن يتداوله الأخوة وليس الأبناء.

جمع (بو سالم) قوة من أنصاره ، وعبر إلى المغرب مدعوما من ملك غرناطة ، على وعد بدعم من القبائل التي ستنقلب لتستفيد، ونزل بجبال غمارة، وأطلق الدعاة يدعون له بحقه في عرش (فاس).

فاجتمعت عليه قبائل (غمارة) وظاهرته ، حتى يكون لرؤسائها نفوذ في مملكته.

وبينما (بو سالم) يجمع حوله الأنصار ، حدث انقلاب جديد في (فاس).

إذ وثب على عرش (فاس) (المنصور بن سليمان) وهو ملك من أحفاد (يعقوب بن عبد الحق) أصحاب ملك قديم إغتصبه منهم (بني

مرين) وتمكن (المنصور) من إنتزاع السلطنة ،والتي كان يدبر لها وأحسن التدبير،فأقصى الوزير (بن عمر) وسلطانه الصبي (السعيد) وتولى الأمر.

ولما حاصرت قوات (المنصور) جيش الوزير (بن عمر) ، وجد بن خلدون نفسه في مأزق ، إذ أنه مرتبط بالوزير المستبد الذى لاحت نـــهايته، والذى أنـــهى حبسه،وله عليه أفضال وصداقة، وهو بذلك يعتبر من أنصاره ومعضديه.

وابن خلدون يعمل التفكير للإفلات من الحوادث المتوالية التي يمكن أن تطويه، وقد رأى أن حكم المستبد يترنح ويتقدم نحو النهاية.وكان عليه أن يتخلص من مشاعر تضعف حركته وتقيده، أخضع تلك المشاعر للتفكير العميق المجرد، وانتهى إلى ضرورة الإنقلاب على صاحبه ،ولينسى أياديه البيضاء عليه،وما قدمه له في (بجاية) وفي (فاس) وأنه قد خلصه من الخنق عقب وفاة السلطان (بو عنان).

أبن خلدون كان متأرجحا في إتخاذ موقفه بعيدا عن صاحبه، لينجو برأسه وعياله وماله، واعتبر تلك (المشاعر) ضعفا إنسانيا ، فأمر الشرعية لا يعنيه،والملك قام على اغتصاب منذ البداية من (بو عنان) أو صاحبه (بن عمر) أو حتى الملك (أبو الحسن)..

والآن فليحصر همه في مصيره هو ، ومصير عياله وما بين يديه من أموال، قد يصبح في أشد الحاجة إليها في الأيام المدلهمة بالسوء والذى لا يدرى هل ستحيق به..؟ وكيف..؟ فالصراع لا يزال محتدماً ومتأجحاً.

لكن بإمعان التفكير في الموقف حوله ،رأى أن المنصور سيكون الفائز ، وهنا لا بد من الحركة السريعة ليبتعد عن السقوط مع صاحبه (ابن عمر) فليأخذ خطوته ويترك "ابن عمر" وشأنه، فلا بد وأنه أعد لأمر هذا اليوم عدته.

وكل جديد بين القبائل المستفيدة سيكون له شأن، وقبل أن تنهار (فاس) بادر وانضم إلى (المنصور) فبدا أنه بمكانته وشهرته من المعضدين ، ذلك أسعد (المنصور) الذي لم يكن يتوقع تأييداً من أقرب الناس حول الوزير (ابن عمر) !

وفي ذلك إتخذ منه دعاية وقناعة لمن يترددون في التصريح بالتأييد لحركته، وكافأه المنصور ، وسريعاً ما صار (المنصور بن سليمان) ملك (فاس) ، وتولى ابن خلدون شئون الكتابة في المملكة الجديدة، حتى قبل أن تستتب الأوضاع نـــهائياً.

و(المنصور) لم يفز بكل ما يأمل ، و(أبو سالم) نزل (غمارة) وقبائل (غمارة) احتفوا به رافعين أسلحتهم مؤيدين له، وقد تولى أمر الدعوة

أبو سالم المريني، الفقيه (بن مرزوق) والذى كان منفياً معه فى غرناطة ،وقد بذل جهداً كبيراً فى كسب القلوب حوله، والحصول على تأييد قبائل غمارة القوية.

ومرة أخرى يعيد بن خلدون دراسة موقفة،فيجد أن الريح تذهب إلى أبو سالم المرينى وداعيتة (بن مرزوق)، وتملأ قلوع سفنهم بالهواء وفى سرية تامة ، يتصل بن خلدون بابن مرزوق ، الذى لا يترك مؤيداً يلوح له إلا ويضمه إلى صفه، مأجاب عليه بن مرزوق الداعية بكتاب موقعا من السلطان المرينى القادم إلى عرش أخيه وأبيه يرجوه فيه،معاونته، وبث دعوته والتمهيد لعودته ويعده بأجمل خير وأفضل حظوة.!!

وإذا تسلم بن خلدون كتاب بو السالم ، بخط الفقيه بن مرزوق، وتوقيع السلطان الذى يسعى إلى ملك شقيقه ووالده، فقد ارتاحت نفسه أنه وضع قدماً هنا وقدماً هناك، لكن كان عليه أن يثبت تعضيده لــ(بو سالم) ، فمضى فى تحريض الزعماء والشيوخ لتعضيد بنى مرين. إذ لابد من المغامرة التى إذا أخفقت .. مات

كما اتصل بصاحبه (الحسن بن عمر) الذى هزم أمام المنصور وجلعه يؤيد حق بو سالم ، ويدخل فى طاعته،وهو وزيرهم القديم الذى يتطلعون لتأييده لهم ، ولن يتغاضى الداعية بن مرزوق عن موقفه

هذا، وذلك تمهيداً لعودته إلى مكانته التى سيفقدها تماماً إذا ما هزم المنصور وتولى (بو سالم) الأمر دون إعلان لموقفه.

وقد قام بن خلدون فى نفر من الزعماء وتلاميذه ومن قام بإقناعهم بمغادرة معسكر (المنصور)، والانضمام لمعسكر (بو سالم) وتقدم لهم بخطة لخلع (المنصور) ،فقربه (بو سالم) منه وأبلغه بأن الوزير الغرناطى (لسان الدين بن الخطيب) كان قد أوصاه به خيراً : لكن أن تبادر وتنضم إلى معسكرنا فهى خطوة منك لن ننساها لك ، ونحن نعلم ما فى جعبتك من تأثير على بعض القبائل،سنعمل طبقاً لخطتك وعلى الله التوفيق والسداد.

قام بو سالم فى جموعه وابن خلدون فى ركابه،واتجه إلى فاس حتى لا يستتب الأمر للمنصور بن سليمان ويؤلف القبائل والأنصار حوله يتقوى بـــهم ،وبنى استحكامات الحصار ، واستخدم نقاط الضعف التى بينتها خطة بن خلدون لفتح المدينة،وقد استخدم مسارب القصور تحت الأرض فى الدخول إلى المدينة،تسرباً وبأعداد قليلة لكل مجموعة مهمة محددة،وحاول بن مرزوق أن يجعل السلطان يتمهل كى لا تحدث خديعة، لكن السلطان بو سالم كان يثق فى لسان الدين بن الخطيب الذى أوصاه وشدد على أن يثق بابن خلدون ويستفيد من علمه ونباهته.

وآثر السلطان بو سالم المضيّ بما يراه بن خلدون .. فحقق نجاحاً ساحقاً،إذ انفجرت المدينة من الداخل بالثورة ،أو هكذا هيأ بن خلدون ليهرب المنصور وحاشيته ، وتستسلم المدينة بدون تدمير أو تصادم يروع أهلها ويفقدهم ممتلكاتهم.

بذلك ارتفع قدر بن خلدون عند السلطان بو سالم "

لكن فى نفس الوقت دبت الوحشة بينه وبين داعية دولته الفقيه (بن مرزوق) وكان رجل لا يستسلم للهزيمة، وكان له ناب أزرق مغلف بالحرير!!

• وفى شعبان ٧٦٠ هـ ، عين بن خلدون فى بلاط السلطان بو سالم كاتباً للسر والإنشاء، جعله موضع ثقته وعطفه فاضطر (بن مرزوق) الذى صار (حاجبه) أن يخفي مشاعره نحو بن خلدون لحين تتاح له الفرصة للإطاحة به.

ولعل بن خلدون قد تنفس الصعداء وهو يستقر فى قصره الكبير الذى خصص له كأحد الأمراء الكبار.

شعر بأنه أدار سفينته بين الأمواج المتلاطمة فى حنكة الربان الماهر حتى خلصها من العواصف والأنواء التى حاقت بها، وأفلت من كارثة كانت ستأخذه إلى أسفل السافلين ، إذا تهاون وجعل لمشاعره اليد العلياءها هو قد أصاب ، وكان سبباً فى إعادة (بن عمر)

إلى مكانته الأدبية،وسوف يعيش مع زوجه وولده ويستشعر شيئاً من مباهج الفوز فى العاصمة (فاس).

وفى هذه الفترة الزاهية من حياته ستنجلي قريحته الشعرية.

كما سيحرر المخاطبات والمكاتبات السلطانية من ثقل الصنعة والسجع ، وسيكون لهذا أثره فى تطور كثير من الكتابات والآداب بالمغرب ،وقد نــهج لغة شاعرية مرسلة وسهلة،وكلما أبدع شيئاً من الشعر فى المناسبات التى تمر بالسلطنة، كوفئ عنه بالمال والعطايا. والسلطان يقدر دوره فى الوصول إلى عرشه ، وينتهز الفرص لتقديم العطايا له.. فاتسع رزقه.

وإذا ما زاره صاحبه (بن عمر) وتذكر معه أيام بجاية ونكبة السجن. والاقتراب من الخنق . وأنه قد قام بسداد جزء من جميل صاحبه عليه، أحس بالراحة، كما أن (بن عمر) يشعر بأن ما فعله معه لم يذهب سدى، فقد أنقذه من سوء تفكير وظهر له بُعد نظره .

وكانت الفترة من ٧٦٠ هـــ إلى ٧٦٣ هـــ عهداً سعيداً فى حياة ابن خلدون وعهد بيان وشاعرية فى ظل حكم السلطان "أبو سالم المريني"

لكن (بن مرزوق) كان يستجمع له السم النــاقع الــذى لاشفاء منه أو خلاص .



الاستبداد يطارد ابن خلدون

وقد أتيح لابن خلدون أن يتصل اتصالا مباشرا بصديقة (لسان الدين بن الخطيب) الوزير الغرناطى ، والأديب الشاعر المقدر من المشارقة والمغاربة ،وشهرتة ، قد طارت إلى آفاق المدن الاسلامية البعيدة، وذلك عندما لازم سلطان قرطبة المخلوع ، منفياً الى المغرب مقيما فى فاس ، إثرانقلاب شقيق السلطان فى غرناطة --

واشتهرت كتابات واشعار بن خلدون ، الذى كان ينحى منحى الشعراء الصوفيون ، فى تجرد النفس من الاعتبارات الدنيوية والسمو الى الملكوت الأعلى ،كما يتمنى أن يكون ، لعله يسعى الى ذلك والعصر لايتيح له هذا السمو فى الواقع .!

لقد كان بن خلدون ، فى واقع الحال ، يعمل بكل ذرة فى كيانة على الفوزبمناعم الدنيا ومباهجها ، ومن أجل الفوز بـــهذة المناعم فى عصرة القلق ، قد لايقف طويلا أمام العهود والمواثيق التى قد يقطعها على نفسه،وذلك عندما ينتقل من معسكر إلى آخر !

هل كان ذلك البيان الصوفى وحالات الاستغراق والسمو الروحى . تكفيرا عن تكالبه على الدنيا ؟

أم أنه فى أفعاله هذة بمقياس عصره المضطرب ، يكون مثالاوتعبيرا عن جملة الأحداث التى يموج بـــها المغرب فى مرحلة زمنية محددة ؟!
على أية حال...

فإن الظروف ، لم تكن لتسمح لابن خلدون بأن يهدأ ويستمتع بحياته طويلا إذ كان دائما ما يقع فى مقابلة منافسا قويا يناهضه ويترصده.

وكانت حياته دراما لابد أن يكون الصراع فيها متكافئاً ، وفى هذه المرة ، كان المنافس له هو الفقيه الداعية وزير السلطان (بوسالم) وصديق السلطان ، وصاحبه (بن مرزوق) وقد لازم السلطان فى النفى سنوات وعاد معه ، ويعتبر مؤسسا لدولته ، وقد رأى بأن السلطان يرفع من قدر (ابن خلدون) حتى يساويه به ، وهو الفقيه الذى يرى أنه لابد وأن لوجهة نظره التقدير الأسمى !!

لقد بذل جهدا حتى سيطر على السلطان ، والآن يتحكم فى عواطفه وقرارته ، لن يسمح لابن خلدون أن يستأثر برجل هو الذى صنعه وهو الذى عبأه بالأمل فى استرداد العرش الذى فقده منه !

ثم يأتى الآن ، ويعزى فضل الوصول إلى عرشه بمؤامرات صنعها بن خلدون قبيل سقوط المدينة .

لذلك ،فقد أخفى ضيقه بابن خلدون ، كان يبتسم فى وجهه ثم يفكر فى أى ، (المصائب) يلقيه فيها حتى يتعثر !

وبدأ بأن أخذ يباعد بين ابن خلدون والسلطان (بو سالم)، ثم يوقع بينه وبين باقى العلماء بالسلطنه ، ومن حين لآخر ،يستخف بما يقوله

ابن خلدون ، ويرفع عليه أقوال أخرى ، يبذل جهداً فى مساندتــها..
وفى خطوة جريئة، أبعده عن كتابة السر والإنشاء والمراسيم السلطانية بأعمال تدخل تحت (التحكيم) ، دون أن يكلفه بعمل محدد.. ثم ولاه "خطة المظالم".. وهو عمل (القضاء)، حتى ينشغل به ولا يغشى مجالس السلطان.

وقام بن خلدون بعمله فى "خطة المظالم"، فأدى عمله فيها بقوة وكفاية واجتهاد فى تفسير القرآن الكريم، وما اتفق عليه الفقهاء من السنة، ومع ذلك كان الوزير بن مرزوق ينتقده، ويرمى عليه بفقهاء يشاكسونه ويعارضونه، فينشغل بن خلدون في الرد على مزاعمهم.
وقد أمكن لابن مرزوق أن يضعف نفوذ بن خلدون لدى السلطان حتى تغيــر عليــه و لم يعد يطيق رؤيته!
وابن خلدون من ناحيته ،كان يقاوم (بن مرزوق) ، مقاومة سرية بين الفقهاء والعلماء والكبراء ورؤساء العصبيات، فقد أقنعهم ابن خلدون بأن الوزير ابن مرزوق أشبه بالمستبد الذى يتكفل بغلام سلطنته ، فقد هيمن على (بو سالم) حتى جعله مجرد رمز ، وقد صار من يحصل على رضا بن مرزوق يكسب قلب السلطان...
والتصورات تتزايد حول ما يقوم به ابن مرزوق من استبداد ، ثم أحال ابن خلدون استبداد بن مرزوق إلى مفاسد ، يحض الدين الحنيف على

مقاومتها ، ليس بالقول فقط - حتى خـلخـل الإتفاق على وزارة ابن مرزوق ، ووصل الأمر إلى السلطان الذى بات يرى فى تصرفات ابن مرزوق قيداً على سلطته ، ووقعت الوحشة بين الوزير وسلطانه فتباعدا موضوعياً وتظاهرا أنـهما معاً شكلياً -

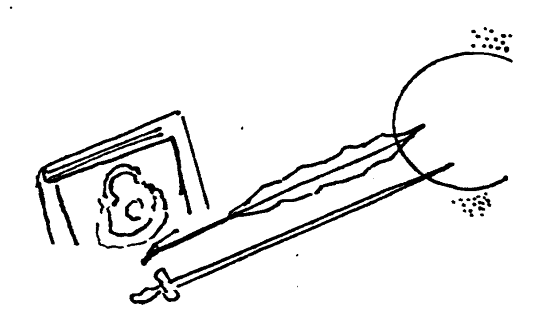
وابن خلدون وقد انتقم من ابن مرزوق ، لكن لم يكن بيده القوة التى يحسم بـها الأمر لصالحه، إلا أن يوعز للفقهاء بترديد اسم الوزير السابق (الحسن بن عمر) وعدله ، حتى عندما كان مستبداً فيما يسمى (المستبد العادل)، أماابن مرزق فهو مستبد ظالم ،يخضع كل شئ لفقهه الخاطئ!

وفى تلك الفترة ، وقد عاد صاحبه لسان الدين بن الخطيب إلى غرناطة مع سلطانه ، وأقام هناك فقد أرسل ابن خلدون البصر إلى الأندلس ووطد علاقته بالوزير الأديب، فإذا ما ضاقت الحلقة حول ابن خلدون قد يقوم بالسفر إلى غرناطة.

فى ذلك الوقت كان القُرب من الوزير الأديب - ابن الخطيب يهفو إليه كل طالب علم ، ويفخر به كل أديب وفقيه وشاعر.

وقدتوطدت العلاقة بين لسان الدين بن الخطيب وبينه ، كان لهذه العلاقة أثرها فى أن يذهب ابن خلدون إلى (الأندلس) ويعيش فترة فى غرناطة... وتتاح له الفرصة بأن يكتب مؤلفاته ، وأن يلعب لسـان

الدين بن الخطيب دوراً في حياته، صعوداً إلى حالة الصداقة ونزولاً
إلى مرتبة التنافس والعداء ، وكل هذا كان له أثره على العصر..
وتلك العمامة التي تكابد مخلفات كثيرة في صراعها بين ما هو
سائد ، وما يسمو إليه وما يرغم على قبوله !



أزمة الصديق [الذى يجمع بين السيف والقلم] تحثه على الكتابة

ولد لسان الدين بن الخطيب فى - لوشة - من أعمال غرناطة وكان ذلك عام ٧١٣ هـ .

وتلقى تعليمه فى - غرناطة - التى كانت (مخزن) لعلماء الأندلس من مختلف الولايات التى سقطت فى يد النصارى الأسبان.

شغف بالعلوم الطبية والفلسفية على عادة علماء المسلمين إذ يجمعون بين علوم مختلفة ، ثم يبدعون شعراً ويحررون الرسائل فى التاريخ نثراً.

وقد درس على يد العالم المشهور يحيى بن هزيل . كما ظهرت براعته فى قرض الشعر وتجلى علمه الواسع فى الأدب العربى فى سن مبكرة.

وبفضل مهارة بن الخطيب ، إذ عمل فى قصر السلطان الغرناطى طويلا، وأظهر ذكاءه، فدخل فى معية السلطان ووقع عليه الإختيار ليصبح وزيراً، وهو أميل لأن يكون عالماً وأديباً، فنال حظوة كبيرة لدى حكام غرناطة وملوكها من بنى نصر أو بنى الأحمر.

وترقى ليكون وزيرهم الأول فى عهد أبى الحجاج يوسف الأول وابنه محمد الخامس (الغنى بالله) والذى لازمه فى السراء والضراء عندما انقلب عليه أخوه، فرحل معه إلى فاس وعاد معه بعد التغلب عليه.

ولم يقتصر نشاط بن الخطيب السياسى على مملكة غرناطة فحسب بل امتد أثره فى سياسة دول المغرب، وذلك لاعتماد غرناطة على

القوة الحاكمة فى المغرب ، للبقاء صامدة أمام جحافل قشتالة وأرجون وباقى مدن الأندلس التى نزعت من يد المسلمين.

صارت غرناطة من المنعة أن لا يفكر أحد فى اجتياحها مع أنـــها المدينة الوحيدة الباقية فى شبه الجزيرة الإيبيرية .

ومن المعلوم ، أن غرناطة كانت محل المجاهدة فى سبيل الله ، بالنسبة لسلاطين وأمراء المغرب أدناه وأوسطه وأقصاه.

وكل أمير أو سلطان يأتى إلى الحكم يأمل أنه سيصحب القبائل لإعادة المدن الإسلامية المفقودة فى الأندلس ، وقاعدة الانطلاق ستكون غرناطة ، ومنها يغزو بـــهم بلاد النصارى الأســـبان.

لذلك كانت غرناطة تعمل على بقاء دولة فى المغرب قوية ومتحالفة معها لتضمن لها البقاء.

وهى سياسة كانت متبعة منذ هزيمة الموحدين وتحصين غرناطة فى الجنوب ، واتصالها الدائم بأرض المغرب ، فتم لها البقاء قرنين ونصف من الزمان.

وكان وزير غرناطة لابد وأن يتمتع بحصافة وعلاقات وطيدة وكياسة وسياسة وأن يؤلف القلوب المختلفة فى المغرب لتساند غرناطة ولتكن عوناً لغرناطة على الأقل، يشغل بال من يفكرون في إجتياحها

وبرع فى تلك السياسة لسان الدين بن الخطيب،بالرغم أنه يتعامل مع دول متنافسة، يصل التنافس بينها إلى حد العداء والقتال، فأمتد أثر سياسته إلى دولة (بنى مرين) فى فاس ، ودولة بنى عبد الـــواد فى (تلمسان) ودولة الحفصيين فى (تونس).

كذلك أثرت سياسته ومراسلاته وسفراته فى الممالك الأسبانية المسيحية، مثل قشتالة و أرجون ، والبرتغال ، إلى جانب نشاطه السياسى وحذقه وموازنته للأمور ووجهات النظر والأطـــماع المختلفة. إنه السياسي الأديب الذي خبر طبيعة عصره

وبجانب تلك العبقرية السياسية كان له ولع بكثير من الفنون والآداب فقد ذاع صيته ،وتعرف على معظم علماء وأدباء عصره ، إن لم يكن يستدعيهم إلى السلطنة ويغدق عليهم ، كان يراسلهم ويطلع على أحوالهم!

وعرف عن بن الخطيب أنه يخصص الليل للقراءة والتأليف يساعده فى ذلك أرق أصابه ، كان يتغلب عليه بالقراءة والإنصراف العميق للتفكير.

بينما كان يخصص النهار لشئون الحكم والسياسة.

ولهذا لقب ب (ذى العمرين) واختلط نشاطه العلمى مع نشاطه الأدبى والسياسى ، إذ كان بن الخطيب يتأثر بعلوم كثيرة تطورت واخترعت وصارت فى الأندلس لها وسائلها .

والوزارة أتاحت لابن الخطيب أن يطلع على الوثائق والمراسلات المحفوظة بقصر الحمراء، فاستخدم مادتـــها فى مؤلفاته التاريخية والتى كان العلماء يتلقفونـــها فيما بينهم فى نـــهم شديد للإطلاع عليها فى أنحاء العالم الإسلامى ، أو يتحدثون عنها فى مؤلفاتـــهم وتواليفهم.

وقد اشتهرت من كتبه (اللمحة البدرية فى الدولة النصرية) وهى تدور حول مملكة غرناطة وصفات أهلها وعاداتـــهم وتاريخ ملوكها .

وكذلك كتاب (معيار الإختيار فى ذكر المعاهد والديار) وهى رسالة فى وصف بعض مدن المغرب والأندلس.

وكتاب (الحلل الموقوتة فى اللمع المنظومة) ألفية فى أصول الفقه

وكتاب (رقم الحلل فى نظم الدول) يتناول فيه تاريخ الدول الإسلامية ، وغيرها من الكتب والرسائل.

وفى سنة ٧٦٠ هـــ -١٣٥٩م حدث انقلاب فى مملكة غرناطة أدى إلى خلع سلطانـــها (محمد - الغنى بالله) وتولية أخيه (اسماعيل بن يوسف) مكانه.

وقد تـمكن السلطان المخلوع من الفرار إلى المغرب الأقصى والتجأ إلى سلطانه (أبي سالم المريني) الذى كان فى ضيافته أثناء منفاه وصعود أخيه (بو عنان) للسلطنة ، وقد عاونه وعضده ليتسلم سلطنته من الوزير المستبد (الحسن بن عمر) ثم من (المنصور بن سليمان) فرحب به (بو سالم) فى (فاس) ، وقد صحب معه وزيره (بن الخطيب) واستضافهما وأحسن استقبالهما ، كما أحسن سلطان غرناطة استقباله فى منفاه ، كما رحب بكل حاشيته وأتباعه ووافق على معاونته على العودة إلى سلطنته فى غرناطة.

وكان معه ابن الخطيب وأسرته ،وأنزلهم سلطان فاس فى بعض قصوره ودامت مدة النفى ثلاث سنوات ٧٦٠ هـ - ٧٦٣ هـ لم يخلد فيها ابن الخطيب للراحة ، وفى تلك الأيام توثقت علاقة ابن الخطيب بابن خلدون الذى قدم له العون وسهل له الإقامة واحتفاء علماء المغرب به.

وقام بن الخطيب فى تلك الأوقات وهو الذى لا ينام الليل،بكتابة رسالته (نفاضة الجراب فى غلالة الاغتراب) يصور فيها الحياة فى المنفى،ويصف مشاهداته فى أرجاء المغرب مع ذكر الأحداث التى مر بـها المغرب وقت منفاه وقبلها.

كما وضع كتاب (كناسة الدكان بعد انتقال السكان) و يدور حول الرسائل السلطانية التي أملاها بنفسه في حل بعض المسائل.
وفي مدينة (سلا) بالمغرب الأقصى . يفقد بن الخطيب زوجه وأم أولاده . إذ يخطفها الموت في اغتراب ، وتشتد آلامه وتغمره موجة من الحزن والتصوف ، لكنه يجد ابن خلدون بجانبه يخفف عنه آلامه ويواسيه ويؤلب العلماء حوله ليغمرونه بأفكارهم ويتفقون عنه ويناقشوه حتى ينصرف عقله إلى العلم ،وينصرف عن الإحباط والحزن وذلك المصير الذي يمكن أن ينتهي به بعيداً عن (غرناطة)...
لكن في سنة ٧٦٣ هـ تمكن السلطان محمد الخامس من العودة إلى عرشه في غرناطة ، بتعضيد من السلطان (بو سالم المريني) ويعود في ركابه وزيره لسان الدين بن الخطيب الذي لم يألوا جهداً في سبيل عودة العرش إلى سلطانه.
لكن ابن الخطيب يستبد بالسلطنة ،ليرسم سياستها ويعيد أوضاعها كما كانت ، وكانت سياسة غرناطة في السنوات الأخيرة ترتبط بفاس وترضى سلاطين بني مرين في كل ما يطلبونه وكأن غرناطة إحدى ولاياتــهم.
لكن ابن الخطيب كعادة العلماء وتقلباتــهم التي يقتنعون بــها لكثرة التفكير فيها ، والتي تصدم من لم تخطر له على بال من قبل ، فقد

قلب سياسة غرناطة لتمتد فوق نزاع الأمراء فى المغرب ، أدناه وأوسطه وأقصاه ، وكان يقدم السوابق والوسائل حتى لا يجعل "فاس" وحدها صاحبة الكلمة العليا ، وقد اقترب وعاش سنوات ثلاث بينهم ، وربما رأى أن تكون لغرناطة سياسة متوازنة مع الجميع... بينما كان يعتبر ابن الخطيب رجل "سلاطين وأمراء المغرب" فى غرناطة التى كان البعض فيها يريد التخلص من سياسة التبعية ،ناسين ما يحيط بـــهم من أخطار هائلة.

وقد عاد بن الخطيب إلى غرناطة ، كان ابن خلدون قد حصل على نسخ من كتبه،وعكف على قراءتـــها،فرأى أنه مهيأ ليكتب رسائل أعمق وأوقع من الخطرات السيارة التى لا تقوم على موضوع محدد. ســـأل نفسه : لماذا لا أكتب تاريخاً كاملاً للمغرب ؟

وأنا الذى أعيش فيه ، بينما ابن الخطيب ، مكث به أعوام ثـــلاث أنتج فيها عدة رسائل ، كانت حديث العلماء ومحبـــى السماع والمطالعة والتوليف؟ ومن هنا ازداد حماس ابن خلدون للكتابة وأخذ يشغل ذهنه بالأمم التى وطأت أرض المغرب ، وهو على دراية بأسرار قبائل صنهاجة التى أسست الدولة الفاطمية في المغرب وكان لها أن تزحف بها لتفتح مصر وتنتزعها من بقايا البيت التركي وقـــد استبد بها كافور ، لتولد القاهرة وفي أعطافها الأزهر.

وأيضا لديه الكثير من أخبار (زناته) وظهور دولتى الموحدين والمرابطين والحفصيين وما تفرع منهم من دويلات.. كانت تقوم.. ثم تقضى وتموت.

كان بن خلدون قد سن قلمه يشرح فى (البردة) شرحاً بديعاً دل على غزارة حفظه للشعر ، وتفنن إدراكه ،كما لخص كثيراً من كتب (بن رشد) ليستفيد منها طلاب العلم ، كما عنق لنسلطان بو سالم فى (العقليات) تعليقاً مفيداً فى المنطق.

ولخص (محصل الإمام فخر الدين الرازى) وألف كتاباً فى الحساب وشرع فى شرح (الرجز) الصادر عن ابن الخطيب فى أصول الفقه فأضاف عليه شيئاً من التركيز والكمال ، وهو يتناول اللمع المنظومة ألفية فى أصول الفقه.

لقد كانت أزمةابن الخطيب ووجوده فى المغرب الإفريقى ، سبباً فى أن يسنابن خلدون قلمه ويبدأ فى التأليف ، بل ويفكر فى كتابة تاريخ المغرب ودوله ، قيام هذه الدول وانـــهيارها،والأسباب التى تودى إلى ذلك ، والبحث فى هذه الأسباب أدى إلى كتابة "المقدمة"

□ كان ابن خلدون يشغل ذهنه بالتأليف والتوليف إذا ما ادلهمت حوله الأمور ، وذلك حتى يمكن أن يصفو ويفكر فى الموضوع الذى يمكنه أن يضع فيه قدمه.!

وكان ابن مرزوق قد تـمادى فى طغيانه حتى انفجر بركان السخط عليه ، وعلى سلطانه بو سالم ، الذى صار ألعوبة فى يده.

وكان ابن خلدون أكثر الساعين للخلاص من ابن مرزوق ، نشاطاً ومواجهة فهو خصمه الذى لا يخفى العداء له.

وأجمع الفقهاء والكبراء والرئاسات رأيهم على الخروج والثورة وقاموا باستنفار صهر السلطان الوزير (عمر بن عبد الله) وكان يوافقهم على طغيان ابن مرزوق ، فقد كان أبوه (عبد الله بن على) الذى تمكن فى دولة بنى مرين من الوزارة ولما مات ، ترك لولده ثروة كبيرة ، وتطلع الولد إلى تراث أبيه فاستعان بالفقيه (بن مرزوق) لتحقيق بغيته وأقترب من السلطان فزوجه أخته ، وعينه كبيراً لأمانته ، ولكن ابن مرزوق عاد وانقلب عليه ، وعكر ما بينه وبين السلطان مدعياً عليه بأنه يسعى لأكثر من المصاهرة !

وأدخل ابن مرزوق فى روع السلطان بأن صهره على صلة بأمير تلمسان ، حتى حدثت النفرة بينهما ، فلما تجاوز ابن مرزوق فى طغيانه واستبداده ، وافق (عمر بن عبد الله) على الإنضمام إلى

الثائرين ، وتفاهم مع قائد الجند ، ووثب على القصر الملكى فى غيبة السلطان وأستولى على العاصمة ، ونادى بخلع (بو سالم) وتولية السلطنة لأخيه (تاشفين).

وخشى بو سالم على نفسه ، ففر معابن مرزوق ومن صحبهم ولكن (عمر بن عبد الله) ظل يطاردهم لنصيحة من ابن خلدون ،حتى يقبض على السلطان ، ولم يغفر له أنه صهره وشقيق زوجته ، فقتله واستبد هذا الوزير بالأمر...

وكأن ابن مرزوق أستبد والسلطان بو سالم دفع الثمن ،حتى لا تكون لابن مرزوق حجة شرعية لجمع الأنصار والوثوب على (فاس) واستعادتـــها مرة أخرى.

ولا تنكر جهود بن خلدون فى الإنقلاب ضدابن مرزوق ، ،لكنه لم يكن يدرى أن الأمور ستتطور إلى هذا الحد الخطير ويأتى الملك بمستبد جديد ، لكنه كان مضطراً لأن ينضوى تحت لواء العهد الجديد دون تردد، وقد أقره الوزير (عمر بن عبد الله) فى وظائفه السابقة وزاد من اقطاعه ورزقه.

لكن بن خلدون إذا هدأ وتأمل ما حدث ، وجد أنه تخلص من مستبد فقيه ، كان يمكن مجادلته ، وكان يقدر على إقناعه بأن أراؤه هى الصائبة بينما وقع الآن فى يد مستبد طاغية ، يده ملوثة بدماء

السلطان بو سالم وهو صهره ، وطغيانه ليس له حدود ، إذ يمتلئ بالأطماع ، وهم كعلماء وفقهاء لما زينوا له الثورة ضد ابن مرزوق ومدحوا مواهبه ، فتحوا شهيته لابتلاع ما حوله وملأوا نفســه بالأطماع الدنيوية.

وقد راح لجهله يبعد عن القصر الرجال أصحاب المواهب حتى لا ينافسوه في استبداده ، وربما لاح لابن خلدون أن يفكر في منصب (الحجابة) ، لكن بوصول الوزير المستبد الجديد وقد تناسى رغبات الفقهاء والأنصار وحجم طموحات الذين دفعوه إلى الثورة ، وكأنما الوزير بات يخشى أن ينقلبوا عليه ،كما انقلبوا على ابن مرزوق القوى. ولأسباب متراكمة ، نفسية وغيرها ، وقعت الوحشة بين ابن خلدون والوزير (عمر بن عبد الله) فغضب ابن خلدون لأسباب تحدث كثيراً إذ يقترح أحدهم اقتراحاً فيرتضيه الوزير المستبد دون ابداء الأسباب فيكون على الفقيه أو العالم التغاضي والبحث عن مقترح آخر. لكن بن خلدون ضخم حالة من هذه الحالات ،واستقال من وظائفه احتجاجاً على رفض الوزير أمراً عادياً ، في الواقع كانت تلك الغضبة تذكيراً للوزير بعدم رضاه عن مناصبه،وتذكيراً له بما وعده وتناساه . بعد ذلك ، فاستاء الوزير وأعرض عنه ، وتنكر له،ولم يطيب خاطره. بل ضيق عليه الخناق، وكأنه وجدها فرصةً سانحة له ليتخلص منه .

واستأذن ابن خلدون فى السفر إلى تونس متعللاً بأنــها بلده السابق يعيش فيها أهله وله فيها إرث ومال . لكن الوزير لم يقتنع بالتعليل ورفض سفره ، وصرح بأنه يمنعه حتى لا يتصل بعدوه (بو حمو) أمير تلمسان الذى بدأ فى جمع قوات ليخلص لنفسه (فاس) ويسترجعها من (بنى مرين) لبنى عبد الواد .

وأنه بات يخشى أن يلجأ ابن خلدون إلى مؤامرة ضده ، واضطر ابن خلدون أن يهدأ ويفكر فى وسيلة أخرى ، فيقوم بارسال زوجه وأولاده إلى أخوالهم فى قسنطينة ، ويبدأ فى مناهضة الأمير الطاغية. بإعادة التماسه فى أن يذهب إلى تونس ،ويتجاهل الوزير طلبه ثانية . وفى هذا الوقت ، تأتى رسالة من ابن الخطيب وزير غرناطة ،تدعوا ابن خلدون لزيارة الأندلس ، كما وعده من قبل ،وهنا لن يكون فى طريقه إلى (بو حمو) أمير تلمسان المشكوك فى الإتصال به .

وربما تكون هذه الرسالة التى تطلب [ابن خلدون] لزيارة غرناطة من تدبيره ، لكن الدعوة التى وصلت الوزير حققت له انفراجة فى أن يسمح له بالسفر ،فرح بن خلدون بالسفر الذى استعد له،وكأنه قرار الإفراج عن اعتقاله فى قصره.

كما جعلته هذه الموافقة ، يطمح فى أن يجد فى غرناطة ما لم يجده فى المغرب ، أو مافقده أثناء الصراعات بينه وبين ابن مرزوق وما أدى

إليه من قتل سلطانه بو سالم ،واندلاع الصراع بين فاس وتلمسان .
الوزير المستبد للسلطان الرمز تاشفين و بو حمو الذى يستعد بمجموعة من بطون القبائل ، ترى أن مناصرة بنى عبد الواد ضد بنى مرين، هى حربـــهم المقدسة ، وتتطلع إلى ما سيصيبها من غنائم!!
وابن خلدون ورأسه يمتلىء بالأفكار التى يريد أن يضعها موضع التنفيذ وله يد فى صنع الساسة الكبار والوزراء بل والملوك ...
وقد صعد إلى المناصب الكبرى فى القصور القوية ، لكنها مناصب تحيطه بالمكانة الأدبية العالية أكثر مما تحيطه بالنفوذ المباشر وأبـــهة المُلك .

وكان لابن خلدون حلمه العظيم الذى يطوى عليه الجوانح ، كان يتمنى أن يصير وزيراً ، وقد لاحت له (الحجابة) عدة مرات ،وفى كل مرة يوضع فى موضع الكتّاب والأدباء حملة الفكر والقلم ، وليس السيف..!

وكانت صورة (بن الخطيب) كوزير وأديب له القلم والسيف...
يتمنى أن يحققها يوماً ،وهو يدرك أنه إذا ما أتيحت له الوزارة سيتاح له تكوين أسرة ملكية لبنى خلدون !
وكانت فى جوانحه كثير من الآمال، وهو يفلت من أسر المستبد بفاس ويصل إلى (سبته) قاصداً غرناطة .



استقبال حافل لابن خلدون في غرناطة

☐ اجتاز بن خلدون المضيق من سبته الى العدوة الثانية (جبل طارق).

ولما اشرف على مروج غرناطة ، خاطب ارض الأندلس

« الآن يعود اليك بنى خلدون يا أندلس » .

ولعله تصور نفسه يقود جيشا كبيرا ,يعيد فتحه ،بل ويعيد فيه الأمجاد التى تقطعت .

وعلى مشارف غرناطه تلقى رسالة اخرى من سلطان غرناطة (محمد الخامس) دبجها صاحبه (ابن الخطيب) بخطه « يهنئه فيها بسلامة الوصول،ويرحب به ضيفا على مملكة غرناطة ، التى ستحتفى بمقدم عالم كبير ومفكر عظيم وصديق لنا وقت الشدة ، عاوننا وقدم لنا جهده لنعود ونسترد ما كان على وشك أن نفقده نهائيا والى الأبد » .

« غرناطة وشعب غرناطة قصراً وعلماءاً وفقهاءاً

وكافة الهيئات لتحتفى بمقدمك الينا .. مرحبا بولى الدين بن عبد الرحمن بن خلدون فى غرناطة .. الأندلس على الرحب والسعة » .

وقام الوزير بن الخطيب بنفسه ومعه معاونيه باستقبال ابن خلدون ، كما تستقبل الشخصيات العظيمة .

فهو بجانب صداقته لابن الخطيب ، قدم سفيراً من قصر سلطان فاس المرينى ، وهو المتحدث الآن باسم الوزير (عمر بن عبد الله) .. !!

وقد حشدت له الحشود ، وارسل الدعاة له ، ومهد لمقدمه كحدث عظيم سيحدث فى غرناطة ، يبهج العلماء جميعا ، كما يعتز به العاهل والوزير ، فاشتاق الجميع لرؤيته والاستماع اليه وقد خصص له منزلا لإقامته واستضافته .

وفى القصر السلطانى استقبله العاهل "محمد الخامس" استقبالا حسنا،واحتضنه وقبله ، وفيه يجتمع علماء وفقهاء غرناطه ، فابن خلدون من تونس،وأهله أصلهم من" أشبيليه" ، التى صارت فى حوزة النصارى ، ويصاهر أمير بجاية ، وكبير من كبراء قسنطينه .

وعمل كاتبا فى قصر السلطان القوى - بو عنان - وصديق حميم للوزير المرينى - الحسن بن عمر - حتى استبد بسلطنة فاس ، ورفع للشرعيه السلطان الطفل (السعيد) ليحكم فاس من وراء كفالته ، وعمل فى ديوان السلطان الذى تغلب فترة قليلة على فاس (المنصور بن سليمان) ومنه انقلب الى تأييد السلطان الذى كان منفيا عند عاهل غرناطة (بو سالم) وقد استعاد ملك والده (بو الحسن) بواسطة وزيره الداعيه ابن مرزوق ، واستبد ابن مرزوق ، وصار الحاكم الفعلى فى فاس . فانقلب عليه ليصنع (عمر بن عبد الله) الذى قضى على استبداد ابن مرزوق ، واستبد هو بالأمر ، بعد قتل صهره السلطان بو سالم .

وفى هذا كله كان بن خلدون "وراء ويداخل وأمام" هذه الأحداث ، تطير شهرته شرقا وغربه وتصل إلى آفاق بعيدة .

فكان استقباله الكبيرفى غرناطة لا يقوم على صداقته للوزير الغرناطى فحسب ، بل يقوم على مواهب خاصة لدى بن خلدون، وشهرته التى سبقته إلى غرناطة .

وبعد الاحتفاء به . وقد تهيأت له إقامة فى قصر كبير زوده صديقه بزوجة جميلة ، وعدد من الخدم والحشم ..

وانتظم فى مجلس عاهل غرناطة ، وصديقه الوزير يعامله فى كرم وود متناهى ، ويجعل من إقامته فى غرناطة نزهة ومتعة لا تنسى .

كان ابن الخطيب يتصور أن سفرة ابن خلدون ستأخذ وقتها ويعود إلى المغرب ، وبذلك يسدد ما فى رقبته من دين لابن خلدون ، هو الذى آنسه وواساه عندما ماتت زوجته ، وكان فى المنفى مع سلطانه ، ذلك فى القلقلة الأخيرة التى مرت بالمملكة الغرناطية ، وسهل له الإقامة لثلاث سنوات فى (فاس) .

وكان بن الخطيب يتصور أن ابن خلدون لن ينسى ما قدم له وما تنعم به من مظاهر الترف والتفنن فى المتعة والاستمتاع بغرناطة .

لكن ما كان يخفيه بن خلدون ولم يصرح به لصاحبه أنه يفكر فى الاستقرار بأرض الأندلس ، وأن يكون له دور فى صنع الأحداث ، وقد بذل جهدا فى الاستحواذ على عاطفة وعقل عاهل غرناطة ، فبات (الملك) لا يستغنى عن وجوده .

لقد ظن بن الخطيب ، أن صاحبه ابن خلدون فى سفره وسفاره ، ولكن ابن خلدون لم يشأ أن يفصح عن الخلاف الناشب بينه وبين الوزير المستبد بسلطنة فاس وأنه كان يحدد اقامته فى قصره ، وأن (سفارته) هذه إبعاد له عن المغرب ، وأنه ضاق بالصراع والتآمر والانقلابات ، ويرغب فى أن يهدأ فى دولة « تجمع بين آخر ما وصلت اليه علوم المسلمين وأولها .. » ليبدأ فى كتابة تاريخ ممالك وقبائل البربر، بعيدا عن مؤثرات وضجيج الأحداث التى تتوالى كعاصفة لا تهدأ ولا تلوح لها نهاية فى الأفق .

واذا ما اكتسب ثقة عاهل غرناطة ، بدأ بتكليفه ببعض المهام.وكان ذلك فى عام ٧٦٥ هـ ، ولم يمانع ابن الخطيب فى قيام ابن خلدون بسفارة لدى (بيدرو القاسى) ملك قشتالة الذى تولى العرش بعد وفاة أبيه الفونسو الحادى عشر (سنة ١٣٥٠م) والذى اشتهر بصرامته وطغيانه وبطشه . يحاول أن يكتب لنفسه تاريخاً فى مقاومة المسلمين، ومحاربتهم، والبطش بهم !

أرسل بن خلدون ليفاوضه فى أمور متعلقة بين المسلمين والنصارى ، وزوده سلطان غرناطة بهدية

فخمة يقدمها ملك قشتالة ، لإتمام إنهاء المسائل المعلقه بينهما ، وعقد الصلح حولها ، مع تنظيم علاقات جديدة بين غرناطة وقشتالة ، وكل منهما فى قراره نفسه يريد أن يقضى على مُلك الآخر ، لكن التوازن العالمى ، حدد حركة الصراع واندفاعه ، فإن قشتاله باتت معتمدة على ممالك وامراء أوربا يرسلون إليها الجيوش اذا ما تعرضت لخطر داهم سارعوا بانقاذها .

وكان وزير غرناطة (لسان الدين بن الخطيب) يمسك بأعنة الخيول فى هذا الصراع ، يوجهها الى حيث الخطر قائم فى شىء من السياسة والكياسة ، على أن لا يقوى زعيم فى المغرب الأفريقى ليفقد غرناطة استقلالها المحسوب !.

فكانت التوازنات والحسابات ، متى تتقارب السياسة بين المسلمين والنصارى لتحل ما عقدته التهورات والإندفاعات من الجانبين ، فإن عمليات الفداء والتضحية والتى لاتمثل وجهة النظر الرسمية من الجانبين ، كانت قائمة ، يذهب ضحيتها أفراد،وتنهب ثروات ، أو تقوم كتحرشات لاختبار القوى !

لكن طالما أن أوربا والمغرب الأفريقى لم يستعدا

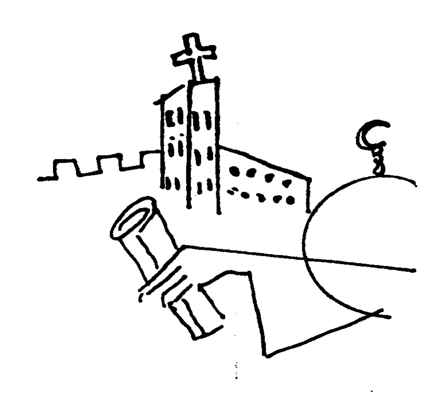
لحرب كبرى ، فإن المناوشات التى تحدث بين آخر معاقل المسلمين، ومعظم شبه الجزيرة الأيبرية ، كانت (السياسة) فى نهاية الأمر تتسلمها بالفحص واللجاج !

حيث تقوم المفاوضات حولها بعد أن تهدأ النفوس ، ليدفع المعتدى شيئا من التعويض ، أو يتعهد بعدم الإعتداء فى المستقبل !

لذا كانت السفارات التى تبحث هذه المسائل، تتطلب رجالاً يتمتعون بالعلم والمعرفة والحكمة وضبط النفس ، مع إظهار شىء من القوة والحزم !

وكانت هذه الصفات تتواجد فى (ابن الخطيب) . ورآها السلطان الغرناطى ظاهرة بوضوح فى (ابن خلدون) .. فاستعان به فى سفارة له ، كانت بالنسبة لابن خلدون ، المؤهلات التى يقدمها لثبات قدمه فى العرش الغرناطى !

* * *



ابن خلدون سفيرا لغرناطة !

□ قصد بن خلدون مدينه اشبيليه ، التى سيتم اللقاء فيها بينه وبين (بيدرو القاسى) ملك قشتاله ، وكانت أشبيليه مدينة أجداده ، وكان لأحدهم فيها الوزارة ، ولا يزال لأهله بيوتهم ومنازلهم التى اشتاق لرؤيتها وزيارتها اذا أمكنه ذلك .

وقد استقبلته المدينة ذات نهار ، فاهاجت فى نفسه كثيرا من الأشواق والأحزان ، وهو العالم الفقيه الذى يعرف ما كان للمسلمين فى الأندلس ، والأسباب التى أدت لضعفهم وانهيارهم .

وعندما مضى فى الطريق إلى قصر الحاكم ، كان كل شىء حوله على النسق الذى اعتاده فى المغرب .. البيوت والشوارع والميادين والقصور والمساجد التى تحولت الى كنائس :: كل شىء حوله على النسق والذوق الذى اختاره أجداده ومالوا اليه، حتى تلك البساتين ، وثمة أشجار عتيقه تصور أنها شاهدت الأمجاد الاسلامية قبل السقوط ، كل ما حوله من مظاهر ، أثار فى ذهنه العديد

من الأحداث التاريخية التى صار يفكر فيها وتشغل ذهنه وكان فى شوق عظيم أن يعاين آثار عائلته باشبيلية ، ويرى مجالس أجداده،والأماكن التى كانت تضمهم !

وكان ملك قشتاله قبل أن يلتقى به ، قد وقف على تاريخ أسرته فى أشبيلية ، كما وقف على تاريخ أعماله مع سلاطين المغرب الأقوياء ، وقيل له أنه لا يزال على علاقة وطيدة بسلطان فاس والوزير القوى هناك ، الذى قد يغامر ويعبر العدوة بجيش قوى ليوقف تداعى الأحداث حوله ، وهو المستبد .. ! .

وكان عدد من اليهود يعملون فى بلاط ملك قشتاله ، ولهم أقارب يعملون فى بلاط فاس ، وعند أمراء وسلاطين المغرب ، وقد زوده طبيبه اليهودى (إبراهيم بن زرور) بتاريخ بن خلدون واسرته وأعماله فى قصورالسلاطين .

مما أدهش ابن خلدون،سعة أفق ملك قشتاله،قبل أن يتقابل ابن خلدون مع الطبيب ، الذى زار بلاط السلطان (بو عنان) لمعالجته أثناء مرضه،وشارك فى مجلس لفقهاء المسلمين ومعظمهم على دراية بالطب بجانب علومهم الأخرى ، وقد أخذ عنهم .

والأخبار التى وصلت ملك قشتاله عنه كان لها أثرها فى استقباله كأحد العلماء الكبار ليعبر له عن موقفه الحضارى !

تساهل فى مفاوضاته مع ابن خلدون ، وتقبل الهدية من ملك غرناطة فى سرور، وأعد له هدايا أفخم منها .

كما أن الملك القشتالى أستضاف بن خلدون ولم ينهى المفاوضات فى عجالة ، وفى ظنه إذا ما أدرك السفير ، قوته وسيطرته ، نقل ذلك الى سلاطين المغرب ، قبل أن ينقله الى سلطان غرناطة .

ووافق ابن خلدون على أن يزور تراث أهله فى أشبيلية . يرافقه الطبيب اليهودى لمعرفته باللغة العربية ، وقد فوجئ بن خلدون بعرض يقدمه له الملك القشتالى .

« بأن ينخرط فى خدمته ، وأنه مقابل ذلك يرد له كل تراث اسرته بأشبيلية .. !! » .

لم يكن العرض سهلا ، ولم يكن بن خلدون ليرفض رفضا قاطعا ، فقد تمهل ، وأخذ يفكر فيه بعمق ، لكن ابن خلدون كان من الذكاء أن لا يعتقد أن ملك قشتالة سيبقى جادا فى عرضه وأنه سيوافق بوضع قنبلة اسلامية فى قصره ، وكل ما يعنيه أن يتظاهر أمامه فى

الفترة المحدودة التى سيبقيها فى سفارته ومفاوضاته ، بالقوة والتماسك ، وبأن شعبه خلفه قلبا وقالباً ، وبأن لا مؤمرات يعانى منها ولا أحداث مفاجأة ستأتى إليه من حيث لا يحتسب !

أما إذا مكث لديه مدة كافيه ، لتبين فى نظامه أماكن الضعف وثقوب التآمر وريح الأطماع ، التى لا تخلو القصور الملكية منها ، فهى النفس البشرية الأمارة بالسوء ، لدى كافة الملل والنحل .

وقد أدار بن خلدون الحديث حول ما جاء من أجله فى شئ من الهدوء والتحديد الذى لا لبس فيه ، وقد أدى مهمته الدبلوماسيه بنجاح ، وقبل من ملك قشتاله هدية خاصة له ، بغلة فارهة بركب ثقيل ولجام ذهبيين ، وعند عودته الى غرناطة اضافها على هدايا السلطان ، مهديها له بدوره ، فأقطعه السلطان لنجاح مأموريته ، ورفضه أن يبقى فى خدمة ملك غرناطة،مع ما عرضه عليه من تراث أهله .. اقطاعا من أملاكه الخاصة .

وكان الاقطاع الذى خصص له عبارة عن قرية كاملة تسمى (البيرة) ، تقع فى مروج غرناطه ، وكانت ضمن أملاك السلطان ليستغلها لصالحه ، ولكى تزوده بما

يحتاج من خيراتها، فزاد رزقه واتسعت أحواله ، وبدا له أن حالة الاستقرار قادمة .

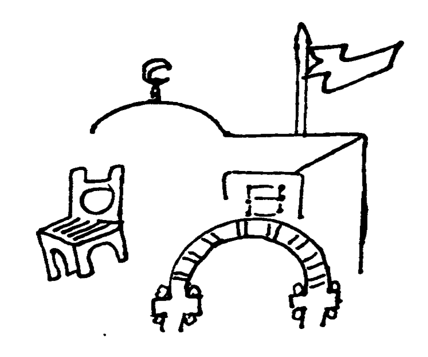
هنا بدأ ابن الخطيب يقلب الأمر فى ذهنه ، فهو لم يكن من الغباء حتى يظن أن صاحبه ابن خلدون جاء فى سفرة مؤقته، وقد ظن وهو المستبد بالملك والسلطان، يخضعه لما يرغب ويهوى، أن السلطان يهيئ ابن خلدون للوزارة بدلا منه .

وقد صارت شهرة ابن الخطيب تفوق شهرة سلطانه ، وأمراء المغرب يتعاملون معه بصفته الحاكم الفعلى لغرناطة .

والصراع بات خفياً وخفيفاً بينه وبين السلطان محمد الخامس .

ثم أخذ يتشابك ويتعقد .

* * *



ابن خلدون وزيرا لبجاية

□ فى ذلك الوقت وابن خلدون أثبت قدرته فى السياسة وصار قريبا من عاهل غرناطة ، لم يدرك التحولات التى طرأت على صاحبه (ابن الخطيب) وإلا ما كان تقدم يستأذن السلطان الغرناطى فى استقدام أسرته – زوجه وأولاده – من قسنطينة بالمغرب .

فأعفاه السلطان من هذا العبء وأرسل من يستقدمهم له ، واستقبل اسرته فى قريته "البيرة" وحوله مروج غرناطة تحيط بها جبالها العاليه ، وفى رغد وطمأنينه لا عمل له إلا حضور مجلس السلطان الذى قد يستشيره فى أمر من الأمور ، فقد انصرف للقراءة فى ذخائر غرناطة التى تجمعت من كل انحاء الأندلس عند انهياره ، أنه الشئ الثمين الذى أتو به معهم . لقد اتاحت له خزائن الكتب فى قصر بنى الاحمر ، ما جعله يتوازن ، فالعلماء لا تدهشهم المتعة الحسية حولهم إذا ما لم تجذبهم متعة عالية ، فجمع بين متعتين ، الاستفادة والتفكير فى تدبيج الرسائل ، بل الشروع فى كتابة

المقدمات ، والمتعة بين أسرته وأولاده فى حالة من الراحة بعد شقاء وعناء !

لكنه ما لبث أن شعر بانقباض السلطان (محمد) عنه ، وهو الذى كان يعشق تواجده فى مجلسه ، وأحس بأن العاهل الغرناطى بدأ حاله الانصراف عما يقوله،بل ويتجاهله :

واخذ يفكر ما هى الأخطاء التى وقع فيها ، وما الذى تبدل وتغير فى سلوكه حتى يتغير عليه السلطان محمد ويصده .. بل ولا يستدعيه إذا ما غاب عن مجلسه متعمداً ، حتى يرى مكانته فى نفسه .

وبقليل من التفكير ومراجعة الشواهد وجد أن صاحبه (ابن الخطيب) له أثره وسعايته فى ذلك الفتور ، فهو الآخر أعرض عنه متعللا بكثرة المشاغل وأعباءها ، ولا يعرض عليه أن يعاونه فيها ، بل كان يقدم عليه من كان (يسبّ غباءهم) ويعزى وجودهم فى مجلس السلطان لعصبية عائلاتهم . وتوازنات الاشتات غير المتجانسه فى غرناطة ، والتى قد رآها البعض محطة للوثوب الى املاكهم المفقودة بداخل الأندلس،وهو ما أرجئ طويلا حتى بات أملا معدوماً .

كان عليه أن يعيد استقراء شخصية الوزير لسان الدين بن الخطيب ، فهو قد تقرب اليه كأديب وطبيب ومفكر وفيلسوف وشاعر وكاتب ومؤرخ ، أي كعالم مثله ، لكن الجانب الآخر (كوزير مستبد) وهو الذى عانى كثيرامن الوزراء المستبدين طوال حياته العملية ، كان طاغيا الآن ، وقد رأى أن ابن الخطيب يربط سياسة غرناطة بسلاطين المغرب الأقوياء ، يسترضيهم وخاصة سلطنة فاس ، وفى وقت من الأوقات أخذ يترقب ظهور سلطان قوى فى المغرب ليعلن الوحدة الاندماجية بين غرناطة والمغرب ليكون من حق الجيش أن يعبر المضيق بدون أحداث خلل فى توازنات القوى التى تترقبها ممالك وأمارات أوربا ، والكنيسة فى روما ، أنه امتداد للصراع بين الروم والمسلمين عند فتح المغرب الذى استمر أكثر من نصف قرن ، يقف المسلمون على بابه فى طرابلس وبرقه والاسكندرية حتى دان لهم .

وكان السلطان الغرناطى لا يستطيع أن يتخلى عن ابن الخطيب - أو لا يقدر على ذلك - وقد نفى معه كوزير فى "فاس" حتى أمكن أن يحشد الحشود ويسقط شقيقه ويعود به الى عرشه .

الوشاة الذين يسعون فى تلك القصور صوروا لابن

الخطيب ان بن خلدون ما استقر وتقرب للسلطان وكسب عطفه وسيطر على عقله ، الا ليستوزره السلطان بدلا منه ، حتى يرفع السلطان عن كاهله استبداده ، وخشى بن الخطيب أن ينكل السلطان به ، فكم من سلاطين نكلوا بدعاتهم ومؤسسو عروشهم ، منذ نكبة البرامكة فى زمن الرشيد .ونكبة عبيدالله ..

والحال فى زمن استبداد الوزراء قائم. وزير يقوى ويرتفع ثم يهوى من حالق ، وكان بن الخطيب يعلن أن صاحبه فى سفرة وعودة مهما طالت فقد يضيق بغرناطة المحاطة بالاعداء إحاطة السوار فى المعصم ، لكن بن خلدون طابت له الإقامة وجاء باسرته وصار منافسه فى حديث المجالس واستعادة ما قاله الفقهاء والعلماء ، وثمة حزب بغرناطة يضيق بالوزير القوى ، فيشيع الإشاعات ، أو يعلن عن ذكاء وفقهابن خلدون لإثارةابن الخطيب ، وأشاع ذلك بين العامة والخاصة من حوله !

وقد يكون (ابن الخطيب) قد أرغم على أن يأخذ هذا الاسلوب ضدابن خلدون حتى يزجره ويجعله يعجل بالرحيل عن غرناطة ، فأغضب عليه السلطان أولا .

وإذا ما وصل ابن خلدون الى هذا التفكير ، رأى أنه لم يعد للبقاء فى الأندلس موضع فى نفسه ، كما أن طموحاته لن تتحقق إلا على حساب صاحبه ابن الخطيب ، وهو لايود أن يحدث هذا ، فكان أن عاش فى ضيعته للتفكير والقراءة ، يكبت آماله ويطوى من طموحاته ويبحث لنفسه عن مخرج ، هل يذهب الى مصر ويستقر فى الإسكندرية ؟ أم يعود الى المغرب الذى لا يطيقه .. ؟! .

وجاء له المخرج للإبقاء على الود قائما بينه وبين صاحبه الوزير الأديب ، تسلم كتاباً من الأمير (بو عبد الله محمد) أمير بجاية ، والذى سبق وتعرض من أجله للسجن، وكاد أن يفقد حياته ، عندما كان السلطان بو عنان القوى ، قد اغتصب امارته وضمها لأملاكه وجاء به الى فاس ، ووضعه فى قصر من القصور شبه سجين ، فاتصل به فى خطأ فادح من أخطاء العلماء والفقهاء الذين قد يرون المسائل البعيدة، ولا يرون ثعبانا تحت أقدامهم ، وهم فى معمعة الأحداث ، وانكر انه اتصل بالامير ؛ وقال أن الأمير يعتبر خال لزوجته ، وانكر انه مناه إذا ما خلصت له امارة (بجاية) يكون حاجبه .

لكن أمير بجاية وقد خشى الموت فى (فاس) وهو

شبه الأسير أو السجين ، اعترف بما حدث ، وأنه لم يسع للاتصال ، بل أن ابن خلدون هو الذى سعى إليه ، وهو الذى عرض عليه أن يكون حاجباً له ، اذا ما عادت دولته فى بجاية،ولولا أن السلطان بو عنان ، كان مريضا وكان يرجئ البت فى شأنه ، ولولا أن صديقه الوزير (الحسن بن عمر) كان يعمل فى الخفاء لصالحه ، ولولا أن السلطان عاجله الموت ، وسقطت السلطنة فى يد الوزير صديقه ، لخنقوه فى سجن فاس ، كما يفعلون بكثير من المعارضين،أو من يثبت تآمرهم ، يحبسونهم حتى تهدأ نفوس أنصارهم ، وفى ليل يخنقونهم ، وتجهز لهم الجنازات التى تليق بمقامهم السامى ويدفنون فى أحزان وتنكيس أعلام .. ! .

وقليل من الخاصة يطلعون على هذا الزيف ! .

* * *



ابن خلدون الوزير المستبد !

☐ امـــيـــر بجـــابه يرسـل لابن خـلدون يعلنه بأن الصراعات فى المغرب ، أدت بأن يستـرد مُـلكه فى بجاية ، وانه يرغب فى قدومه إليه ، جاءت الرسالة فى وقتها.

يطلب بـن خلدون من الوزير المتـباعـد أن يســمح له بالعودة إلى المغـرب ، ويطلب من السلطان أن يأذن له فى ذلك .

يتنفس ابن الخطيب الصـعـداء ، إذ أبقى ابـن خلدون على صـلة به كـانت على وشـك الزوال ، وهـو فى قـرارة نفـسـه ،كان لا يـريد ذلك ، إذ كـان يـعـرف قـدره الـعلمى والأدبى ، واذا مـا جالسه كـانت له ريح الاصـدقاء المنعشة للروح ، وليسـت ريح الزملاء الثقـيلة ، وسـريعـا ما وافق السلطان واستـقبله فى حفـاوة متحفظة، وبذلك انتعشت أواصر الصداقة بعد فتور ، وأوعز ابن الخطيب للسلطان أن يكرمـــه باعطيـــاته ، إذ ســـيكـون له فى (بـجـــاية) بالاضافة إلى (فاس) شأن لا ينكر ! .

ومن " المريّـة " ومعه اسـرته واغـراضـه ، وهداياه ومن

يحرسه ويخدمه ، ركب السفينة السلطانية فى الطريق الى إمارة بجاية،يجلس أمام أمواج البحر .

ويفكر ، ماذا أنا فاعل .. ؟

والحلم الذى يشغل أيامه على وشك أن يتحقق ، (حاجبه‌وزيرا) لأمارة (بجاية) وبيدى الحل والعقد !!

أمير بجاية (بو عبد الله محمد) لم ينس لابن خلدون إبان محنته،وتحديد اقامته فى (فاس) زمن سلطنة (بو عنان) .. أنه كاد يفقد رأسه من أجله ، عندما اضطر أن يضحى به لينجو برأسه ، وخشى أن لزم الانكار كما فعل بن خلدون ، ينتقم منه السلطان بو عنان ويخنق .

وقد قام أمير بجاية باستوزار (يحيى) شقيق (بن خلدون) حتى قدومه إلى الإمارة من غرناطة (سنة ٧٦٦هـ) وأعد له الأمير استقبال يليق بوزير .

وكان الأمير وأهل بجاية فى استقباله ، يحتفون بقدومه،وعندهم تصور سابق لما لاقاه من أجل أميرهم من عنف السجن،وتهديد الموت لاستعادة (بجاية) من بنى مرين .

ركب بن خلدون مع الأمير فى موكبه وجعله بجواره واهل الأمارة يحتشدون على طول الطريق ، يمسحون أعطافه ويقبلون يده مع يد الأمير .

وشاهد بن خلدون يوما مشهودا من أيام حياته ، كانت خيالات هذا اليوم تهفو جامحة فيطردها كما يطرد التهيؤات ...

ها هى الأحلام تحط على ارض الواقع ، لقد تحقق أمله أخيرا فى الوزارة ، لأول مرة فى حياته يدخل قصراً ، ليس فى وظيفة (كاتب) ، لكن فى وظيفة (حاجب) وقد ولاه الأمير الحجابة فى احتفال ومراسيم .!! .

كان لابد للأمير وأن يعلن بأن (ولى الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون) صار حاجبا لأمارة بجاية ، فيهتف له كبار القوم بالقبول .

لكن ابن خلدون فاجأ الجميع عندما وقف ليلقى كلمته

« بأنه الآن يقبل أن يكون حاجبا (لسلطان) بجاية وضواحيها .. » . ولم يقل"أمير"بجاية .

وبذلك تحولت أمارة بجاية الى(سلطنة). والأمير إلى

(سلطان)كـان هذا الأمل يـراوده .. أن تتحـول بجـاية من أمارة الـى سلطنة يتبعها أمراء ، وشرح لـلحضور كيف يتم لهم ذلك ، وقـد قـبل الحـجـابة ، على اسـاس [الاسـتـقـلال بالدولة ، والوسـاطة بين السلطان وأهل مملكته ، لا يشاركه فى ذلك أحد] .

أندفع بن خلدون يعبر عن أحلامه فى التوسع ، واستعادة الامارات والممتلكات المفقـودة ، والدعم الذى يجب أن يقدم من القبائل التى تنتسب اليها (بجاية) ، وكيف يكون لسلطان بجاية(حَضـر) فى مدينه بجاية وريف فى الصحراء و ... • .

ومع أن بن خلدون كان ينتقد من يفعل ذلك ، ويعده مستبدا وقد لمح له شقيقه يحيى ، الذى أبقاه للعمل فى حاشية السلطان (بو عبد الله محمد) بذلك .

فقد عقب ابن خلدون دون تفكير ؛ لقد قلت ذلك وأنا فقيه ، أما وانا وزير .. فالأمر يختلف .. ثمة فرق بين أن يكون بيدك القلم ، أو السيف ، لقد صار لى الأثنان . !؛

و استبد بن خلدون كوزير بشئون سلطنة بجاية وضواحيها،ومضى يدير أمور بجاية بعزم ، ويعالج الفتن التى تندلع فى شئ من العنف الذى كان يقف ضده ،

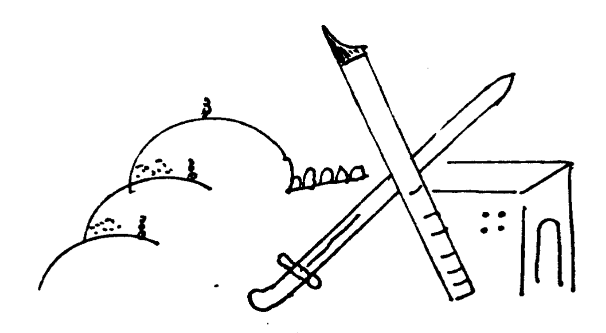
ويتجول بين القبائل الجبلية،يستخلص منها الجباية قسرا ، بقوة ودهاء .

ويمنى رؤساء القبائل ، اذا ما دفعوا المال ، بأن يجيشهم، يفتح بهم المدن والأمصار ، يصنع منهم الأمراء والملوك ، ويحكى لهم عن أصول السلاطين والأمراء الحاليين . . .

فجمعوا له المال الذى يرغب فى جمعه ، وباتوا يحلمون بالمجد الذى سيصيبهم اذا ما جيشهم وزير سلطان بجاية ، وفتح بهم العالم ، شرقه وغربه !

كان ابن خلدون لا يستطيع أن ينسى بأنه عليم باسرار النفوس ، فكان يقوم بتجاربه على الواقع ، فيصل الى الخطوة الأولى ، لكن الخطوة الثانية هى التى تتعثر وتثقل عليه . . . !

* * *



سقوط السيف من يد اعتادت القلم ..

□ ثمة خصومة وتنافس بين الجيران ، ما لبثت أن أنشبت مخالبها بين سلطان (بجاية) وبين ابن عمه سلطان قسنطينه (بو العباس) ، وقد سعى ابن خلدون أن يوحد بينهما وكل منهما يتقوى بالآخر !

لكن حاجب سلطان قسنطينه ، أظهر للسلطان (بو العباس) أن اطماع أبن خلدون، كوزير مستبد، لن تقف عند حد التحالف ، بل أنه وقد رفع أمارة بجاية التى كان يمكن أن تنضوى تحت لواء سلطنة قسنطينه إلى أن تكون سلطنه رأس برأس .

ذلك أظهر أطماعه ، وكان سلطان قسنطينة يأمل فى الاستيلاء على أمارة بجاية، ويقنع القبائل بذلك ليكون لهم جميعا الجيش القوى ، فإن ظهور ابن خلدون، قلب خطط (بو العباس) رأسا على عقب ، وهو الذى بات يخشى فتوة سلطنة بجاية ، ولكل دولة فتوتها وأيام قوتها .

بات يخشى من أن تطوى إمارته فى أعطافها ، وبو

العباس كان يتمنى أن يكون بن خلدون وزيره الذى يخطط له طريقة الوصول الى تحقيق مشاريعه .

كانت الدولة الناشئة فى بجاية ومشاريع ابن خلدون كبيرة على إمكانياتها ، وقد أرهق القبائل والسكان بالضرائب والجباية ، وكانت حركة (بو العباس) بين القبائل تقوم على تخفيف هذه الأعباء عنهم ، بل وإلغاء الجباية لمن ينضم تحت لوائه .

ولم يمهل بن خلدون الوقت الكافى حتى ينشىء جيشه ويجهزه بالعدة والعتاد ، وما يتطلبه ذلك من نفقات باهظه .

وبجاية وما مرت به من احتلال ونهب لم يعد فيها ما يكفى ، كما أن سلطانها ليس ثريا بالقدر الذى ينفق على الجيوش من ماله الخاص .. ! .

ذهب ابن خلدون يستنفر القبائل الخاضعة لبجاية ، فخذلوه وتمكن (بو العباس) من الزحف على بجاية وحصارها ، وخرج إليه سلطانها بما لديه من قوة ، على أمل أن لا يشتبكا أولاد العم ، وأن يتدخل العقلاء بين الأهل فى اللحظة الأخيرة ويخضعا للمفاوضات والسياسة . وفى ذلك المضمار يتفوق وزيره المحنك ابن خلدون

إلا أن بو العباس . كان قد عزم أمره ، واستقرأ خطط سلطان بجاية الضعيف ، الذى يطلب فترة سلم طويلة ، ستشكل على قسنطينة خطراً . لذلك قرر بوالعباس أن يهاجم بقوة ، جيش سلطان بجاية لتتشتت قوات بجاية وتتراجع ، ويقع سلطان بجاية فى الأسر ، فيأمر ابن عمه فى لحظة غضب بخنقه ، ويقتل ، ويدخل بجاية ظافراً .

كان ابن خلدون على رأس قوة من القبائل ، عندما علم بأن الموقف كان لصالح بو العباس ، وأنه سارع وهاجم جيش بجاية وتخلص من السلطان (بو عبد الله محمد) بالقتل ، قام بصرف جزء كبير من القوة التى معه ، وأتى الى القصر بمن يحرسه ، ودخله وتحصن به ، يقلب الفكر فيما هو فاعل .. ؟!.

عندما تقلب الأيام ظهرها للعالم أو للفقيه ، فأن أقصى ما يعاقب به أن يطرد من مناصبه ، وتسلب ثروته ويعزل من مكانته ، أما هذه الوظيفة اللعينه ، " حاجب ". ووزير فأن إنقلاب الأيام عليه يعنى الموت ، والصراع الآن الذى لم يتوقع هبوبه من ناحية أقرب الأقارب للسلطان جاء من ابن عمه عاصفاً ومريعا .

فكم تعرض هذا الامير المقتول من اعتقال وأسر ، وسقوط لإمارته على يد بنى مرين ، وبرغم العداء بين الحفصيين وبنى مرين ، أو التنافس القديم بينهما ، فأن لا أحد تقدم وقتله .

وقد ضبط مرتين يتآمر لتخليص أمارته ، فكان يعفى عنه ، وكان ذلك حقه المشروع فى أن يقاوم كأمير شريف.

لكن عندما عصف عداء الأقارب من البيت الواحد والجد الواحد .. سريعا ما فقد حياته ..!

أى حكمه استخلصها بن خلدون ، ليسجلها فيما بعد فى مؤلفاته ، عندما يكون صراع الأقارب وأبناء الجنس الواحد ، أو العنصر الواحد ، أشد وأقسى ضراوه من الصراع مع الغرباء ... !

« ما الذى تفعلينه بالأرحام يا ريح الكراهية والحسد؟ ! » .

* * *



ذكاء بن خلدون ينقذ رأسه من الضياع ..

□ احدهم عرض على بن خلدون أن ينادى بابن من أبناء بو عبد الله محمد (سلطانا) مكانه ، يجمع له قوة من القبائل تسعى إلى أرزاقها من وراء شرعيته ، ويتولى ابن خلدون الوزارة كفيلا بالطفل كعادة الوزراء المستبدين .

لكن بن خلدون أبى أن يفعل ذلك .. !

كان الذى يعرض عليه العرض ، متآمرا ، ومرسلا من طرف السلطان بو العباس يجس نبضه ، فعاد إلى السلطان وقص له ما حدث .. وكيف أبى ابن خلدون أن يتآمر ؟ .

وربما شعر بو العباس أنه تسرع فى قتل بن عمه وراح يبحث عن أسباب تبعد جريرة موته عن كاهله .. اعجب السلطان بموقف ابن خلدون عندما بلغه بأنه صرف عدة بطون من القبائل حثها لنجدة السلطنه ، لما علم بانتصاره وأنه لا يريد تمزيق قسنطينة التى بها أخوال أولاده ، وبجاية التى بها عمله وأمله ، ويتمنى

أن يجد سلطـانا قوياً ، تـكون لـه مهـام (قوميه) تخدم المغرب والمغاربة .

وعند دخـول السلطان بو العـباس المـدينه ظافراً.خـرج اليه ابن خلدون يحـيـيه وينضـوى تحت لوائه.ويسلمه مفتاح المدينة .. !

ابن خلدون لم يكن يملك إلا أن يفـعل ذلك ، فأكرمه السلطان الظافر ، وأقره فى وظيفته ، لكن السلطان له حـاجبه.وكان يتمـنى أن يعـمل ابن خلدون بين القـبـائل لصـالحـه ، وهو يعلم تأثيـره عـلى رؤسـاء القـبـائل وتجـييش الجـيـوش منهم ، كمـا أنه أبقى على المشـاريع الإصلاحية التى شرع فـيها ، فـتركه يسـتـكملها ، .لكنه شعر بعد قليل من الوقت بـإنحراف السلطان بو العباس عنه ، فاستـأذنه للسكن بأحد أحياء المدينة البـعيـدة عـن العمران .

كانت الـهـواجس قـد ركـبـت بن خلــدون بـأن وزير السلطـان بو العباس لن يهدأ له بال.حتى يتخلص منه ، فـسكن فى مكان لا يصلـون.اليـه بالـسم أو الطعن فيـغتالونه فى طرقـاته .. مكان مـعـزول.، يكشف الغرباء ويراقبهم ، وحـتى يبدو أنه يخـرج من المدينة بلا مـتاع ، سـرب أمتعته وثروته الشـخصية ، وحفظ أولاده بعيدا .

وأخذ فى هذا المكان يشغل نفسه بالكتابه والقراءة ويترقب الأحداث وما تأتى به ، وقد بث عيونه من الخدم الصغار حول حاشية السلطان بو العباس ، يفيدونه بما قد يدبرونه فى الخفاء اذا ما قرروا أن يتخلصوا منه .

وتناهى إلى بن خلدون أن ساعته قد دنت ، فقد قرر وزير السلطان أن يتخلص منه ، عندما كان يعاتب من كلفهم بقتله ، كيف لم يتوصلوا إليه .. قالوا : « أنه خارج القصر ، فى مكان يكشف الغرباء فيختفى .. ونحن لا نصل إلى جسده حتى نزهق روحه .. » ضرب الوزير الأرض بقدمه وصاح فيهم :

« اقتلوه ولو كان فى بطن أمه وإلا قتلتكم جميعا » .

فرّ بن خلدون الى (بسكرة) ، فقبض وزير ابو العباس على أخيه (يحيى) واعتقله فى (بونة) ، وفتش بيوت بنى خلدون وصادر أموالهم .

وهكذا، اختتمت (مغامرة) بن خلدون ، كوزير مستبد .. وباءت أطماعه وخططه بالفشل ، هو الذى توسل إلى هذه الوظيفة بكافة الوسائل ، وأهمل أشياء كثيرة كانت فى الواقع هى القضايا المهمة التى يهتم بها الفقهاء والعلماء فى خضم صراع عصره .

كانت مغامرته أن يصعد بأمارة بجاية بامكانياتها المحدودة الى مصاف ومطامع السلطنة فى جيرانها والشعوب المحيطة بها .

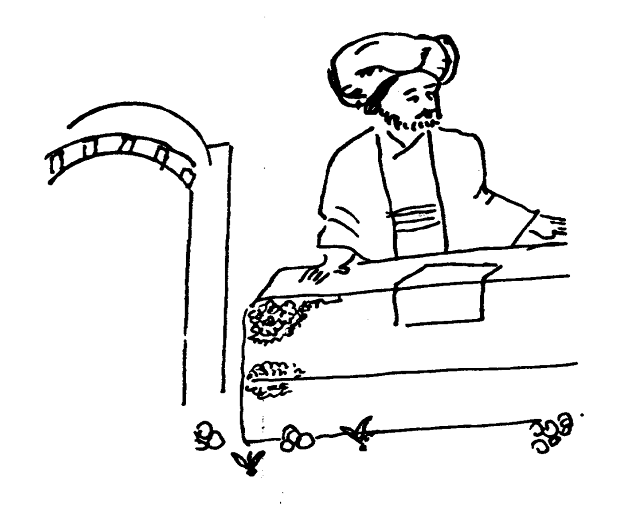
كان هو الذى عجل ورفع الإمارة الى سلطنة ، فأثار عليها أمير قسنطينة ، ولعله تعجل الزمن ولم يستقرئ الأوضاع التى حوله .

فأن ما يستقراه ليس كتاباً ، أو حالة أو مخاصمة بين طرفين ، واضحين أمامه ، أنها السياسة وأطرافها العديدة ، كالنجمة التى لها مئات الاشعاعات ، كل شعاع يشير الى مشكلة لابد لها من حل ، قبل أن ينشغل فى اشعاع أخر .. !! .

انها السياسة وخفاياها ، وهو مهما كان عالما فذا وصاحب حكمة فى مشكلة محددة ، فأن وجوده فى معمعان المشكلة يتطلب شخص أخر له من الحنكة السياسة ما لأبن الخطيب ، وله من الشجاعه ما لدى بو عنان ، الذى حسم الأمر مع والده حتى قضى عليه ، وله من الأطماع ما لدى بو الحسن المرينى ، وله من الدهاء ما لابن مرزوق (وزير السلطان بو سالم) وله من موات الضمير والقلب ما لدى الوزير (عمرين عبد الله) الذى قتل صهره السلطان بلا رحمة .

وهكذا . لابد وأن يجمع كل عباترة عصره فى شخصه ، بجانب الدهاء فى جمع المال ، والظروف المواتيه لانضمام القبائل اليه واسترضاءها ، فإن واحدة من كل العوامل اذا اختلت ، ذهبت سلطنة بجاية الى حيث ذهبت ، وعادت أمارة صغيرة كما كانت على اكثر تقدير . . . !

* * *



يموت الزمار . واصابعه تلعب !

□ ثمة صداقة قديمة بأمير بسكرة،وابن خلدون إذا ما نزل عنده،لم ينزل كصديق خالص ، بل كمستجير ، فأجاره فى إستحياء ، ولبث فى قصره مقيما يرقب تطور الحوادث ..

، ابن خلدون اذا ما فكر فيما حوله ، انتهى إلى أن يعيد إتصاله بالأمير (بو حمو موسى بن عبد الرحمن) أمير تلمسان ، ،كان صهرا لأمير بجاية المقتول ، ويعرف علاقته به وتضحياته من أجل بجاية ، لم يكن يفكر فى الاستعانه به على (بو العباس) سلطان قسنطينة عندما ذهب لزيارته .. بل كل ما كان فى ذهنه ، أن يفتح لنفسه مسلكا يسلك إليه إذا سدت فى وجهه السبل .

- لكنه إذا ما مكث قليلا فى معية (أمير تلمسان) .. بدأ يفكر فى تحريض الأمير (بو حمو) ، وقد شاهد أن له قوة وبأس على فتح (بجاية) ، وعلى أن يعاونه بالقبائل التى له بها اتصال وتأثير مع مجموعة من البيوت التى ترى أن قتل أمير بجاية كان لا مبرر له .

ويجد تخطيط ابن خلدون صداه عند أمير تلمسان ومرة أخرى يعود ابن خلدون ويلعب بنار السياسة .. ! .

يقوم أمير تلمسان باعداد قواته لحصار بجاية واسقاطها .. ويقوم ابن خلدون بعرض المعاونة والحصول على التأييد من القبائل فى الصحراء والريف ، الا ان القبائل لا تتحرك بالتأييد إلا اذا لاح نصر الأمير الذى ستؤيده ، لقد علمتهم التجارب الكثيرة أن التأييد لا يكون سابقا على بوادر النصر !

وكان (بو العباس) قد دس فى معية (بو حمو) من ينقل إليه أخبار تحركاته ، وبوحمو ما كاد يتحرك بجيشه فى الطريق الى بجاية ، حتى نصبت له الأكمنه ، وأوقع به ، وهزمت قواته على مشارف تلمسان .

وفقد أمير تلمسان جزءاً من خيرة فرسانه ، لكنه لم يفقد الأمل فى فتح بجاية .. وأبقى على (ابن خلدون) فى بلاطه يدرس معه أحوال بجاية وضواحيها ، وأحوال قسنطينة وضواحيها ، وهوى القبائل فى الأمراء والملوك !

وينتظر أن يعيد الكرة من جديد محتفظا بابن خلدون فى قصره ، لتأثيره على القبائل وتحويل عواطفها إليه ،

وقد أقنعه بن خلدون بأنهم ما خذلوه ، ولكنهم انتظروا أن يحاصر المدينة وتبدأ تباشير عزمه ، حتى يكون تأييدهم فى محله ، وهم إذا ما اعلنوا تأييدهم لقوات لم تتمكن من تحقيق أهدافها لدارت عليهم الدوائر عند هزيمته وانسحابه .

ويتصادف ويمرض وزير (بو حمو) مرضا عضالا فيتولى (ابن خلدون) الحجابة بدلا منه !

وهنا .. يعود بن خلدون يزين لأميره الجهاد فى سبيل فتح بجاية ، وانشاء الدولة الكبرى .. ويقنع الأمير ، أن ثمة فرق بين شخص ضائع لا منصب له ، ذهب الى القبائل يحرضها فيسمعون إليه ويرثون لحاله ، وشخص فى منصب الحجابه . وخلفه أمير قوى لتلمسان .

هنا سيكون لموقف القبائل التى يخبر طبيعتها ، شأن آخر معه .. لذلك ، يطلقه أمير تلمسان ليعمل بين القبائل بصفته حاجبه ، ويأتى إليه بأخيه (يحيى) الذى أطلق سراحه (بو العباس) ليعمل فى الحجابه بالقصر .. ويذهب ابن خلدون إلى الصحراء يؤلف قلوب رؤساء القبائل خلف (بو حمو) أمير تلمسان ويؤلب القبائل على بو العباس وقسنطينة .

وابن خلدون عندما وجد نفسه فى الصحراء ، وهو يرتاح ، بنفض عن نفسه كثير من المشاغل فيها ، يعود ويتأمل أحواله ويرى أنه قد عاد وانغمس فى السياسة ، بينما شىء بداخله يجذبه بأن يستكمل مشروعه الفكرى !

شعر وهو يتنقل بين القبائل ، ويعيش حياتهم ، بأن الحياة فيها كثير من المُتع التى تفوق الجاه والسلطان وصناعة الأمراء والوزراء ومصانعتهم !

شعر بأنه سئم المخاطر والمغامرة ، وأهوال الوظائف ومؤامرات القصور ودهاليزها ، أحس أنه يشتاق للدرس والكتابة .

لعله رأى والده يتمثل له كما السراب فى الصحراء ، يخاطبه فى عتاب ... « ما الذى فعلته بنفسك يا ولدى .. ألم أنصحك؟ هل قصرت فى تعليمك ومنحك فرصة البحث والاستزاده .. ؟

أين ذهب الوزراء الكبار ، وأين موضعهم من التاريخ.. ؟ .

كم من وزير كان وكان ... ماذا بقى منه ؟ .

لكن انظر الى مفكرى وفقهاء المسلمين .. شرقا

وغربا ، ستجد أن آثارهم باقية، يشاركون فى جدل ، ويدلون بالأراء وهم فى الواقع ماتوا منذ سنوات طويلة .. » .

أنه الخلود الذى تسعى إليه يا بن خلدون ، انه بين يديك ، وأنت غافل عنه ، أنها تجربتك وحدك ، بكل ذرة تفكير فيها ، لن يفعلها إلا أنت ، أما الحجابة ، فثمة آلاف يرنون إليها ويفعلونها أفضل منك .. انظر إلى صاحبك بن الخطيب ، ما الذى طير اسمه عبر الآفاق ؟ أنه الأدب والعلوم التى يبرع فيها ، وليست الوزارة ، أنه القلم الذى تبقى ذخائره ، وليس السيف الذى يصدئ ولا يجلب حده إلا الموت والكراهية ، لقد سعيت وأنت فى فاس لتتآمر من أجل الحجابة ، فتعرضت للسجن والموت شهوراً طويلة، ذهبت هباءً من عمرك ، وبعدها صرت وزيراً لبجاية .. ماذا جنيت ؟ إلا أن يسعوا فى التخلص منك ، أشكر الله بأنك نجوّت ، لتبدأ فى مشروعك الفكرى والتاريخى ، ستزول كل إمارات المغرب ، وبعد دهور لن يذكر الناس إلا العلماء والفقهاء « ماذا قالوا ، وماذا أضافوا ؟ » .

وربما كان هذا الحوار يدور فى ذهن ابن خلدون عندما قرر أن يرسل الى صديقه (ابن الخطيب) رسالة

إلى غرناطة ، يحدثه فيها بأخباره ومحنته فى بجاية ، ويعرب له عن شوقه إلى الكتابة والانقطاع للتأليف ، وكان يأمل أن يعود لضيعته فى أرباض غرناطة ويخلص للتأليف والدرس .

وحتى يرسل إليه وزير غرناطة بالرد ، كان لابد وأن يظهر عملا يعمله لصالح (بو حمو) ، لقد وجد نفسه فى معية أمير كل الشواهد تقول أنه لن يحقق نصرا كبيراً ليعيد إليه بجاية ، وربما رأى أنه إذا وسع الشقاق بين (بو اسحاق) سلطان تونس ، واخيه (بو العباس) سلطان قسنطينة وبجاية ، قد يصل إلى مبتغاه بواسطة (بو جمو) أمير تلمسان .

لكن أمير تلمسان يتعجل للمرة الثانية ويعد العُدة لحرب (بو العباس) فى قسنطينة ، فيهزمه السلطان بو العباس ويرده إلى (بسكرة) مرة أخرى !

وتزيد متاعب (بو حمو) فى تلمسان ، لخروج ابن عمه (بو زيان) عليه ، فيستعين بابن خلدون ، ويذهب إليه ، ويدبر له الأمر حتى يدخل به تلمسان ظافراً ، ويطلب منه أن يبقى ضمن حاشيته ، فيبقى ، ويغدق عليه .

ويأتى عيد الفطر فينشده بن خلدون قصيدة للتهنئة منها :-

« هذى الديار فحيهن صباحا

وقف المطايا بينهن طلاحا

لاتسال الأطلال أن لم تروها

عبرات عينيك واكف متاحا

فلقد أخذت على جفونك موثقا

أن لا يرين مع البعاد شحاحا »

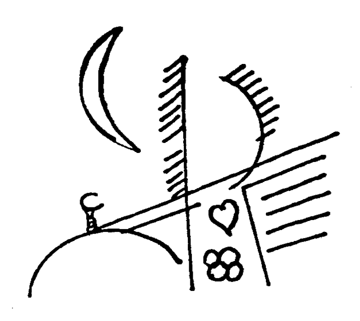
لكن ولاء بن خلدون لأمير تلمسان لم يطل أمده والسلطان (عبد العزيز بن أبي الحسن المريني) سلطان فاس القوى ، يجهز جيوشه لانتزاع تلمسان من قبضة بني عبد الواد ، حتى يلتقى ببني حفص في قسنطينة وتونس ، ويتغلب عليهما. ويوحد المغرب لإعادة الأندلس « ذلك الحلم الجميل الذى ترتكب المذابح الكبرى باسمه !! »

وكم من الغزوات التى تحركها الأطماع الشخصية ارتكبت من أجل حلم تحرير الأندلس ، ومع أن هذا كان يتكرر أجيال وأجيال ، لكن الدعاية بين القبائل

كانت تقوم على أن هذا (الفتح) يتم من أجل هدف أعظم .

كانت القبائل تنتظر ما تسفر عنه الوعود ، فلا تصل إلى الواحة المنشودة ، ويبقوا تائهين فى صحراء ، يشوبها الهجير ، أو البرد الزمهرير !! .

* * *



سلطان فاس الشاب يتخلص
من الوزير المستبد

□ كان الوزير (عمر بن عبد الله) الذى قتل صهره السلطان بو سالم المرينى ، قد استبد بشئون (فاس) منذ سنة ٧٦٢ هـ ، وهو الذى ضيق الخناق على (ابن خلدون) وقد خير مواهبه فى معاونته، ومناهضة الوزير الفقيه ابن مرزوق حتى قضى عليه ، وأمكن لابن خلدون أن يتفق مع صديقه (ابن الخطيب) وزير غرناطة الأديب بأن يرسل إليه ويستدعيه ، فكانت سفارته وسفرته التى زار فيها غرناطة وذهب إلى أشبيليه وقابل ملك قشتاله بيدور القاسى (بطرس) والذى أعجب بمواهبه فى المفاوضات الدبلوماسية .

الوزير" عمر بن عبد الله" وقد استبد بعرش فاس القوى أخذ يولى العرش ملوكا أحداثا ضعافا من بنى مرين ، ليكتسب الشرعية ، ويبقى هو الحاكم المستبد ، وسمة ذلك العصر ، كان فى الوزراء الأقوياء والملوك الضعاف .

وفى ٧٦٨ هـ منح العرش للسلطان عبد العزيز بن السلطان بو الحسن ، وكان غلاما ، وكعادته شدد فى إعتقاله والحجر عليه وإحاطته بأتباعه ورجاله ، فأنف هذا السلطان الفتى ذلك إذ أمكن أن يهدأ ويخادع وزيره وبأنه راض عن أفعاله ، حتى اطمأن إليه ، فخفف قبضته عنه ، وقد تقمص الفتى شخصية سلطان لا يهمه من الدنيا إلا محاسنها ولهوها ، لكن السلطان الشاب كان يرى أنه قد استوعب الدرس من السلاطين الذين سبقوه وكان الوزير يتخلص منهم بالموت أو الحوادث المفاجئة أو العزل .

وإذا بالسلطان عبد العزيز الهادئ ، يدبر أحواله ، ويثب بالوزير (عمر) فى غفلة منه ، ويقتله غيلة ، كما قتل السلطان بو سالم غيلة من قبل.وهو أخوه الكبير .

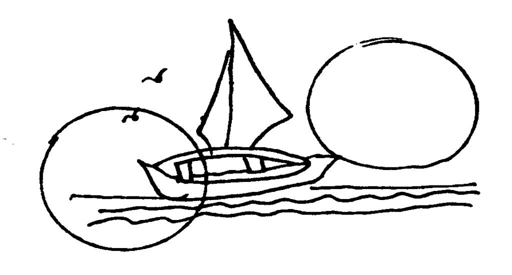
وقام هذا السلطان الفتى الشجاع وفتك بذويه وانصاره واسترد السلطة كاملة ، ثم خرج بجيوشه للغزو والفتح واتساع ملكه واستعادة ما كان فى يد أبيه ، يحلم بتوحيد المغرب فى دولة كبيرة ، كما كاد أن يحقق والده ذلك الحلم ، وسريعا ما تصادم بجيش تلمسان ، وأمكنه فتح وسط المغرب ، وقضى على سلطة بنى عبد الواد ، كما فعل والده من قبل .

وكان بن خلدون فى تلك الأيام يقيم فى ضيافة (بو حمو) وهو كبير بنى عبد الواد ، فلما بلغه مقدم ملك المغرب الأقصى ، رأى أن الطريق إلى (بسكرة) قد قفل ، والفتنه وانقلاب القبائل قد اشتعلت ضد بنى عبد الواد ..القبائل تؤيد ظهور هذا السلطان الشجاع الذى قضى على الوزير (عمر بن عبد الله) وقد كثر أعدائه ومنافسوه .

خشى بن خلدون فى هوجة إندفاع القبائل للتعضيد كعادتها - حتى يصل الرؤساء فيها إلى شىء من المكاسب والمزايا فى العهد الجديد - أن يساء فهم موقفه ويحسب على بنى عبد الواد ، قام وأقنع (بو حمو) أن يسمح له بالسفر إلى (غرناطة) « لكسب صديقه ابن الخطيب فى صفه ليعضده به ، وهو له تأثير شخصى على بنى مرين » .

فأذن له .. وبعث معه برسالة إلى ملك غرناطة .

* * *



ابن خلدون يحاول الهروب إلى غرناطه .. ولكن

☐ أسرع بن خلدون إلى (مرسى هنين) ليركب إحدى السفن فى البحر ويفلت إلى غرناطة ، وقد نمى إلى ملك المغرب - السلطان عبد العزيز - أن ابن خلدون فى (هنين) ينتظر السفر إلى غرناطة ، وانه يحمل ودائع وأموال ونفائس لأبى حمو الذى يريد حفظها فى غرناطة ، فأرسل فى طلبه بسرّية من الجند ، وأمر أن لا يفلت منهم ، وحتى إذا كان قد ركب البحر فليركبوا خلفه ويأتون به .

وابن خلدون فى(مرسى هنين) وهى بلدة ساحلية وبها ميناء صغيرة ، حاول أن يتنكر ويختبئ ، وكل همه أن ينزع نفسه من هذه الصراعات التى ضاق بها ، ويأمل الهدوء فى غرناطة ، وأن يسطر ما يفكر فيه !

لكن العيون كانت ترصده ، حتى داهمته السرّية ، وقبض عليه عسكر السلطان عبد العزيز ، فتشوه فلم يعثروا معه على شىء مما قيل أنه يحمله .. وذهبوا به إلى السلطان فى ظاهر تلمسان ، فحقق فى شأنه وعنفه

على إنسلاخه عن (بنى مرين) وانضوائه تحت لواء أعدائهم .

كان السلطان الشاب يفعل ذلك وحاشيته الكبيرة تضم فقهاء وعلماء ورؤساء قبائل .

فاعتذر بن خلدون بما كان بينه وبين الوزير (عمر بن عبد الله) وأنه لم يكن راضيا عن استبداده ، وقتل السلطان بو سالم ، وكيف حدد الوزير إقامته ، وأنه فقد كل شيء من أجل بني مرين ، عندما ترك قصره ونفائسه ووظائفه ورحل إلى غرناطة ولم يعد إلى فاس ، وأشهد بعض الحاضرين من الفقهاء والكبراء ورؤساء القبائل ، فى دفاع صال فيه وجال،حتى اكتسب عطفهم واجبرهم على إظهار الشهادة ، تؤيد موقفه وصدق ما يقول ؛ فـإذا بالسلطان الشاب ينقلب من العنف إلى اللين والملاطفة،ويقر أمامه بأنه كان يتمنى يوما أن يلتقى به ويكون تلميذا له،وأنه يجله ويقدر خدماته لبنى مرين كما أنه سيعوضه عما لاقاه من الوزير المستبد . وعندما يختلى به،يطلب معاونته ومشورته !

لقد كان السلطان الشاب يدرك طبيعة بن خلدون ، إذا ما رفعه إلى مكانته اللائقة ، قد يقدم له كل ما يبغيه من

خدمات لا تقدر بمال ، فهو فى نظره لا يزال يملك التأثير على القبائل التى تعضد (بو حمو - وبنى عبد الواد) كما أنه يمكن أن يدله على خطة أمير تلمسان فى المستقبل ، إذ أنه لن يمكث بوسط المغرب طويلا ، وسيتحرك نحو الشرق أو الغرب ، ورأى أن ابن خلدون كان وزيراً لبجاية، وسيعاونه على التغلب على بنى حفص .

ومرة أخرى يغوص بن خلدون فى معمعة السياسة .

هو الذى كان قد عزم على التفرغ للكتابة والقراءة وضاق بالصراعات ، لكن هذه الصراعات هى التى كانت تلاحقه وقد لا يسعى إليها ، لكنه لا يملك أن يفلت من أسرها !! .

ويقدم بن خلدون جهوده وفكره للسلطان المرينى الشاب ، ويقترح عليه السلطان بأن يكون وزيره فى الصحراء، يؤلف له قلوب القبائل ، ويجد ابن خلدون ضالته فى هذا المنصب ، فهو به يحقق أكثر من حالة ، يرغب فيها وتتجاذبه ، فمن ناحية ، سيكون بين القبائل التى تجّله وتقدره فى الصحراء، والتى يعشق الهدوء فيها، وخلوته للتفكير والتأمل ، وذلك الصفاء الذى يأمله

أصحاب الفكر . ومن ناحية أخرى سيناى بنفسه عن مفاجآت القصور ومؤمرات الدهاليز !

وقَبِل المنصب ، وتحول ولاءه إلى "بنى مرين" مرة أخرى ، تاركا تأييده لبنى عبد الواد ، ومعرضاً الحفصيين إلى خطر نزع أملاكهم ، وفى ظنه أن فى ذلك بعض الانتقام ضدهم ، فهم الذين نزعوا منه سلطنة بجاية ، واسقطوا من يده السيف الذى لم يرفعه !

* * *



مرة أخرى .. سوء الحظ يلازم بن خلدون !

□ يتـزود بن خلدون بالعطايا لرؤساء القبـائل ، ويطلقه ليكون مقره (رباط بو مدين) ، فينزل به ، ويزار من رؤساء القبائل وشيوخها هناك ، فيجتمع بهم ويقدم لهم عطايا السلطان عبدالعزيز ، على اتفاق أن من لا يؤيده لا يتحرك ضده !

ويبقى فى (رباط بو مدين) الصحراوى،مع عدد من الخدم والحرس ، ويجد نفسه مستغرقاً فى عزلته بالقراءة والدرس .

وإذا ضاق ، قام بزيارة رؤساء القبائل ، فاحتفوا به ويعود للقراءة والدرس .

لقد بدأ العمل فى مؤلفه التاريخى الكبير والمقدمة التى فلسف فيها حركة التاريخ والعمران ، وقيام الدول وانهيارها،فتوتها وشيخوختها ، بحثا عن الأسباب والعلل فى قيام العمران والممالك ، فى سقوطها وتهالكها، واضعا أساس علم الاجتماع وفلسفة التاريخ لأول مرة فى العالم !

وإذا ما فرغ من بعض ما كتبه فى تاريخ المغرب

وقبائله قدمه إلى السلطان عبد العزيز المرينى الذى يحتفى به ويكافئه على هذا ويطلب منه المزيد .

وتسقط تلمسان فى يد السلطان عبد العزيز ، وتنهزم قوات بنى عبد الواد ، ويلحظ السلطان بأن جهود بن خلدون فى تهدئة القبائل التى تؤيد حق "بنى عبد الواد" فى تلمسان قد أتت بنتائج إيجابيه فى صالحه ، فهُم لم يتحركوا بالثورة عندما خلص تلمسان له ، فعاد وأغدق عليه !

لكن ابن خلدون كان يأمل في مغادرة المغرب إلى غرناطة ، فيذهب إلى (بسكرة) ويجمع حوله أولاده وزوجه ويعمل بهمه فى مؤلفه التاريخى .

لكن قبائل المغرب الأوسط المؤيدين لحق بنى عبد الواد فى تلمسان ، تثور فى جميع النواحى فجأة .

ويحشد السلطان عبد العزيز جيشا بقيادة وزيره (ابن غازى) ويطلب ابن خلدون بأن يذهب ويستميل القبائل مرة أخرى، فيقوم بجولة بينهم، يقدم لهم العطايا ومعه (ابن غازى) ورؤساء القبائل المواليه ، فتهدأ الأحوال نسبيا ، يعود بعدها إلى بسكره ليعمل فى مؤلفه التاريخى، لكن مقامه لم يدم طويلا فى

بسكرة ، فقد أنس فى نفس أميرها تغيّرا ونزوعا إلى الثورة ضد بنى مرين !

وكان أمير بسكرة يعمل على استمالته وهو يدرك تأثيره على القبائل التى ما تكاد تهدأ حتى تثور .

وكان يستمع إلى أميرها ويحاول أن يثنيه عن موقفه ، إذ كان يخشى أن يكون فى ذلك ملعوب مارينى لكشف ميوله وسبر اغواره ، وهو وقد ضاق بالسياسة وصار مشغولا بمؤلفه الذى يريد أن يفرغ منه .

اضطر أن يغادر بسكره يصحب معه أسرته ومتاعه ليلحق بالسلطان عبد العزيز فى تلمسان ، وما كاد يصل إلى منتصف الطريق حتى بلغته أنباء بوفاة السلطان عبد العزيز مسموما،وتولية ابنه الطفل (السعيد) فى كفالة وزيره (ابن غازى) !! .

لقد عاد وزير مستبد آخر إلى العرش المرينى ، وذلك الوزير رأى نفوذ ابن خلدون على القبائل،وكيف يستقبلونه كملك ، ما بقى ذلك أثراً في نفسه

وكان ذلك الوزير غامضا ، فخشى أن يبيت له ويتخلص منه !



الاحداث تفرض علي بن خلدون موضاعات مؤلفاته

□ جلس بن خلدون يتأمل الدورة التى تدور حول نفسها منذ أن حل على المغرب زمن الوزراء المستبدين ، فها هو ملك قوى آخر صاحب عزيمة وقوة يُوقف أهدافه فى توحيد المغرب تحت لواء واحد، يموت بالسم ، يموت الملك عبد العزيز وهو فى عنفوان الشباب، ومرة أخرى يستبد الوزير بعرش بنى مرين !

وتابع بن خلدون أخبار البلاط المارينى ، فعلم أنهم قفلوا عائدين إلى (فاس) وبينهم الفقهاء والعلماء والكبراء .

فعوّل على اللحاق بالبلاط فى (فاس) حتى لا يبدو موقفه شاذا ، ويسئ الوزير المستبد تصور موقفه ، وهو الذى جال معه بين القبائل، ورأى تأثيره على رؤساء القبائل واستقبالهم له كملك .

كان وقتها (ابن غازى) وزير السلطان، وقائد جيشه المنتصر ، ومع ذلك كانت القبائل تحتفى بابن خلدون وتقدمه عليه ، وابن خلدون ليس من السذاجة أن يتأخر

عن اللحاق بالبلاط في فاس،ويترك الساحة للأطماع والظنون والصغائر،ومن يلعب في الظلام !

* * *

اخترق الصحراء باسرته وأولاده مع بعض البطانة والجند،وعدد من المسافرين إلى فاس،في قافلة صغيرة لها دليلها .

لكن القافلة أثناء سيرها تعترضها عصابة من الأشقياء - وذلك كان أمرا عاديا - ففي أزمنة الاضطراب يكثر قطاع الطرق واللصوص ، لكن هذه العصابة كانت تضم مجموعة من الذين كانوا يعملون مع (بو حمو) ، وبهزيمته،تشتت جيشه،وعاش بعض جنده على السلب والنهب والانتقام من اتباع السلطان المتغلب عبد العزيز ، ومع علمهم بوفاة عبد العزيز فإن الأمور صارت تكتنفهاالفوضى ! .

هوجمت القافلة،وقتل من قتل ، وتشرد في الصحراء من تشرد ، ونهبت أمتعة بن خلدون وخاصة أوراقه وأجزاء من مؤلفه،والذي كان بالنسبة له يفوق كل ما لديه من متاع ومال !

بالمصادفة يتعرف عليه أحد الملثمين ، إذ كان من

جنده فى (بجاية) فعمل على تخليصه، ورد الصناديق التى وجد أفراد العصابة أن ما بها لا يستحق ، فهى أوراق وكتب وملابس. وجهز له الدواب التى حملته وأولاده وزوجه ، وقام بعض من يأتمرون به بتوصيله إلى مشارف فاس فى رحلة شاقة !

كان بن خلدون وذويه فى حالة يرثى لها عند وصولهم إلى فاس ، فاستقبله الوزير (ابن غازى) الذى كان فى اشد الحاجة لتأييده ووقوفه معه ، غمره برعايته، وعوضه عما فقده ، وأقام بن خلدون واسرته فى نفس المنزل الذى كان يسكن فيه من قبل، لينعم ببعض الهدوء !

ولكن ما عكر صفو أيامه مجيئ صاحبه (ابن الخطيب) هاربا من غرناطة ، ناجيا بنفسه من نكبة وانقلاب عليه ، كاد أن يؤدى برأسه هناك ، فاحسن استقباله، وأوعز للوزيرابن غازى عن مكانته الأدبية. التى تفوق مكانته كوزير ، وحدثه عن مؤلفاته ، فاحسن الوزير استقباله. وابن خلدون يمدحه ويلمح بأن غضب عاهل غرناطة عليه مؤقت ، وسريعا ما يتم الصلح بينهما ، وعلى ابن غازى أن يقدم له العون فيجد منه – فيما بعد – كل التعضيد ! .

وتأتى الرسائل والرسل من عاهل غرناطة بتسليم ابن الخطيب لهم والعودة به إلى غرناطة حتى لا تتدهور العلاقات بين فاس وغرناطة ، لكن الوزير ابن غازى بتأييد وإلحاح من ابن خلدون لا يستجيب ، فتسوء العلاقة بين فاس و غرناطة بالفعل .

وتبدأ الحرب السياسية بينهما ، فيطلقون فى غرناطة على بن غازى صفة " القاتل " ، الذى تخلص من سلطانه المحبوب بالسم ، ليستبد بملك فاس ، وأن بنى مرين منكوبون بالوزراء المستبدين !

فيقوم بن غازى باطلاق سراح بعض اللاجئين من أسرة " بنى الأحمر " ويزودهم بالمال ويعدهم بالمعاونه إذا ما ناوأوا عرش غرناطة !

ومن ناحية سلطان غرناطة، فهو يطلق من لجأ اليه من المطالبين بعرش فاس - وما أكثرهم - وزودهم أيضا بالمال والعطايا لاستمالة القبائل ضد ابن غازى .

وكان بينهم (عبد الرحمن بن يفلوس) من أمراء بنى مرين ومعه وزيره وداعيته (مسعو بن ماس) وامكن لهذا الأمير وذلك الوزير أن يتصلا بالقبائل الطامعه فى النفوذ والجاه، وأن يحصلا على مآزرتها إذا ما حدثت الثورة ضد الوزير ابن غازى الحاكم فى (فاس) .

وقام هذا الأمير بمحاصرة جبل طارق ، وهو يومئذ من أملاك بني مرين على العدوة الثانية ، وقام الوزير ابن غازى بارسال جيش لمقاتلة الخوارج بقيادة ابن عمه (محمد بن عثمان) فاستماله سلطان غرناطة، وحرضه على الثورة ضد ابن عمه مع مساندته ، لينادى للأمير احمد بن السلطان بو سالم بالملك على فاس ، ويصير هو وزيره ، ويتلقى الدعم من غرناطة فى طنجة ، وزحف بقواته لقتال بن عمه الوزيرابن غازى ، ونشبت بينهما معركة طاحنة بالقرب من (مكناسة) وارتدابن غازى إلى فاس، وتحصن بها ، فحاصره بن عمه ومن معه حتى أزعن، واجبره على خلع الملك (السعيد) واعلان سلطنة (أحمد) على فاس ، وعين ابن عثمان لحجابته .

ومن ناحية أخرى استولى الأمير (عبد الرحمن) على شمال المغرب تنفيذا لاتفاق بينه وبين (ابن عثمان) أثناء خروجه على (ابن عمه) ابن غازى .

ومن هنا ستبدأ مأساة من يلعب بالسيف والقلم معاً !



مأساة ابن الخطيب وابن خلدون معا !! .

□ كان ابن خلدون أثناء سريان تلك الأحداث مقيماً في فاس، ومعه صاحبه الوزير الأديب بن الخطيب ، فلما وقع الانقلاب على ابن غازى ، وشى بعضهم فى حق ابن خلدون لدى الوزير (ابن عثمان) على أساس أن ابن خلدون كان يقود الحرب من وراء ستار ، وأن كل القلاقل كان يخطط لها بن خلدون ، ولم يكن ابن عثمان فى حاجة لأن يعرف تأثير بن خلدون على الوزير المهزوم، وهو ابن عمه، وكان فى معيته وبلاطه .

فقبض عليه حيناً ثم أفرج عنه بمسعى من الأمير عبد الرحمن المرينى المتحالف معه (سلطان الشمال) .

وكان فى علاقة طيبة مع ابن خلدون منذ زيارته لغرناطة ، ولقاؤهما فى مجلس السلطان الغرناطى ، وعندئذ أزمع (ابن خلدون) الرحيل إلى الأندلس، بعد أن أغلقت فى وجهه قصور المغرب كلها !! .

وكان يود أن يفرغ يده من السياسة ومفاجآتها ،

ويخلد للتفكير فى التأليف والدرس ، لعله تذكر نصائح والده وتحذيراته له ثانية .

لقد أكفهر أفق المغرب فى وجهه ، فترك أسرته فى فاس رهينة ، فان الوزيرابن عثمان ما كان يسمح له باصطحابها ثم ينقلب ضده ويؤلب عليه القبائل فى الصحراء .

جاز البحر إلى غرناطة فى ربيع ٧٧٦ هـ فلم تستقبله المدينة بالأحضان والقبلات كما فعلت به فى المرة السابقة ، قام بالأتصال بوزير غرناطة القوى (ابن زمرك) الذى حل محل صاحبه (ابن الخطيب) اللاجئ فى فاس ،وعندما وجده مسافرا إلى فاس للتهنئة والمفاوضة ، رجاه أن يسعى لإطلاق سراح اسرته لتلحق به ، وأن يقنع الوزير (ابن عثمان) بذلك،ولم يَرابن خلدون أنه كان محل مساومة شائنة بين ابن عثمان وابن زمرك !

.. فقد توجس وزير فاس شرا من استقرار ابن خلدون فى غرناطة ، وأبى أن تلحق به اسرته ، لما نمى إليه من أن ابن خلدون على صلة بالأمير عبد الرحمن أمير الشمال ، يحرضه على غزو فاس، وأنه سيؤلف له القبائل لتقويته .

المؤامرة ..... ؟

□ كان ابن زمرك الذى يعرف صداقة ابن خلدون بالوزير المنافس له (ابن الخطيب) قد ذهب إلى (فاس) فى مفاوضات سرية ، فحقق لعاهل غرناطة ما قطعه على نفسه بالقضاء على الوزير الأديب لسان الدين بن الخطيب ، كما كان (ابن زمرك) يخشى أن يفلت (ابن الخطيب) ويعود إلى وزارته بغرناطة ويفتك به ، فهو صاحب تحالف الأقوياء بالمغرب، ويعتبر سفيرا لبنى مرين لبقاء نفوذهم على غرناطة .

هنا تقابلت مصالح الطرفان وتم الاتفاق سريا بأن يقتل بلاط غرناطة ابن خلدون هناك ، وأن يقتل بلاط فاس ابن الخطيب فى فاس !

وكل طرف يختار الوسائل التى تبهت من آثار الجريمة وتلفها فى غموض ، وكل طرف من الوزراء المستبدين لا يدرك بأنه يقتل عقلين عظيمين من عقول العصر !

(من سيتذكر بن عثمان أو بن زمرك بعد أن يأخذ قسطه من الأيام الموعودة ويرحل ....؟!)

قام بلاط فاس بعقد الاجتماعات لمناقشة ما تتضمنه كتابات ابن الخطيب من كفر وإلحاد وزندقة ، وقام البلاط بتفنيد أقوال ورسائل ابن الخطيب والتى كتبها وهو وزير غرناطة .

لم يكن ابن الخطيب ليجهد فكره ليرد على الترهات التى وجهت له من فقهاء مدعين يقطر النفاق من ألسنتهم !

وكان يندهش أن يحاسبه (بلاط فاس) على رسائل يكتبها بلاط غرناطه !

وأمام العقول المغلقة ، والعواطف الموجهة ، والمشاعر المشحونة بالحقد ، أصدر بلاط فاس مجموعة توصيات من العلماء الصغار ، اعتبروها فتوى دينيه « بأن كتب وشعر ونثر بن الخطيب يحمل فى طياته شركا بالله ، وزندقة ، وأن مآل ذلك هو الكفر والنار ، وعلى ابن الخطيب أن يعلن توبته ويطلب المغفرة من الله ومن أولياء الأمر ويحرق مؤلفاته بيديه أولا » !

فلم يجد بن الخطيب على لسانه إلا أن يطلب لهم من الله الهداية وينفث من قلوبهم الحقد والغل ، فيعتبرون أقواله سخرية وتآمرا على السلطان ، ويزجون به فى

سجن فاس المظلم وليبدأوا أولا بأن يفقدوه مكانته الأدبية والسياسية، يجسون نبض من حوله ، من الذى سيغضب عليه،ومن الذى سيثور ويؤازره .

لكن ابن الخطيب لم يكن فى هذا الوقت هو الوزير القوى ، بل كان الوزير المنفى ، وعادة ما يكون للرجال العظماء كثيرمن الأعداء . الحقراء الذين تمتلىء قلوبهم بالحسد والكراهية ، فأن بن الخطيب كعملاق فى زمن الأقزام ، كان يقف وحده ، وكان يدرك أنهم يتفننون إرادة عاهل غرناطة !

وما جاء ابن زمرك إلى فاس إلا ليتآمر ضده،ويلحق به الأذى !

وكان بن خلدون (وهم يبحثون له أيضا عن موتة تبدو طبيعية،فلا تؤلب عليهم من يحاسبهم) يبذل الجهد فى إقناع عاهل غرناطة بأن خصومته مع ابن الخطيب ليست على أساس،وأن تحريض السلطان عبد العزيز لاحتلال المغرب ، ذلك لبناء دولة قوية يمكن لها أن تتصدى لجيوش النصارى إذا اجتاحت غرناطة ، وليس لعزله هو وإضعاف بنى الأحمر، واذا كان بن الخطيب يطلق عليه منافسوه ، "رجل المغرب القوى" فى

غرناطة.وعامل بنى مرين فى الأندلس ، فأن هذا الأرتباط لصالح غرناطة ، وحتى يدرك النصارى أن غرناطة لها العزوة والأهل ، وأن إجتياحها لن يمر أو يتحقق بسهولة .

كان فى كلام بن خلدون كثير من المنطق .

لكن عاهل غرناطة ما يكاد يقتنع حتى ينخر اتباع وزيره (ابن زمرك) فى عقله فيثقبونه ، فيخر ما كان قد تحصله من نصائح خلدونية !

وجاءت الأخبار إلى غرناطة.بأنهم حبسوا ابن الخطيب فى سجن فاس لثبوت الزندقة والكفر عليه !

واقيمت محرقة ، وتم حرق كتبه فى النيران ، وقد أفتى بعض الفقهاء السفلة بثبوت الكفر فيها.

وما هى إلا أيام ووردت الأخبار بموت بن الخطيب فى سجنه.وانهم بعد موته أحرقوا جثته ، وكان ذلك فى عام " ٧٧٦ هـ ـ ١٣٧٤م »

• وبينما كان بن الخطيب الوزير والأديب ميتا ومخنوقا ومحروقا ، كانت رسالته الأخيرة تصل إلى ابن خلدون فى غرناطة ، كتبها وهو فى سجنه ، فى نفس الغرفة التى سجن فيها من قبل"بن خلدون"، يحثه فى مقدمة

الرسالة أن يبذل مساعيه وأن لا يألوا جهدا فى إقناع عاهل غرناطة ، ومن يمكن التأثير عليهم فى براءته ، يبلغهم أنه يطلب العيش فى سلام بعيدا عن السياسة وتقلباتها ، لينتهى من مؤلفات تجوس فى ذهنه ، وفى ذلك ختام لحياته ، وهو الذى كان دائما ما يسعى إلى وجود قوة تحمى غرناطة ، التى تقف وحدها على أرض الأندلس الشاسعة فى مواجهة ريح الكراهية والتعصب .

وفى نهاية الرسالة يضمنها أبيات مؤثرة من الشعر ، يستشعر فيها نهايته المرتقبه .

« بعدنا وان جاورتنا البيوت

وجئنا بوعظ ونحن صموت

وانفاسنا سكنت دفعة

كجهر الصلاة تلاه القنوت

وكنا عُظاما فصرنا عِظاما

وكنا نقوتُ فها نحن نقوت

وكنا شموس سماء العلا

عزين فناحت عليها البيوت

فقل للعدا ذهب بن الخطيب

وفات.ومن ذا الذى لا يفوت

فمـــن كان يفرح منكم لـــــه
فقل يفرح اليوم من لا يموت !

• كـان بن خلـدون أسـعـد حظا من صـاحـبـه ، إذ إن سلطان غـرناطة لم يقـتـنع بمنطق (ابن زمـرك) عـندمـا اقـتـرح عليـه أن يمرض بن خـلـون بقليل مـن السـم ، ثم يموت فى بطء بواسطة التطبيب الخاطىء .. !

فقد كـان خبر موت ابن الخطيب وحرقـه والأفتراء على مـؤلفـاته،بأنهـا تحـمل الكفـر والإلحـاد ، قـد اظهـر الفـرق الشـاسـع بـين"حضـارة البـدو وحضـارة المدن"، ذلك التراث العظيم الذى لا يزال محتفظا به فى خزائن بنى الأحمر ، وتلك التـراهـات والأكـاذيب الشـائعـة فى صـحـارى المغـرب تتغذى على الجهل والغيبيات والخرافات .

وقـد ثارت المناقشـات من عقـلاء غـرناطة،وانكروا كفـر وزندقـة بن الخطـيب ، وذلك أظهـر جـهل فـقـهـاء المغـرب المنافقون أكثر من تثبيت التهمة عليه .

كـانت الأسـئلة توجـه لابن خلدون لـيـجـيب عليـهـا ويفـسـر لهم تلك الأحـوال التى صـدمـتـهم فى مـوت ابن الخطيب ، واشتهر اسم ابن الخطيب وذاع صيته أكثر من أيامه وهو حى .

وكان ذلك نكاية فى جهل بلاط (ابن عثمان) الوزير الذى اتهم باغتيال احد عقول المسلمين ، فهب عليه الغضب من جميع أنحاء الأمة الإسلامية ، وارسل عاهل غرناطة إلى ابن خلدون يحذره بأنه مستهدف ليقتل ، وعليه أن يسرع ويغادر غرناطة ، وأنه برئ من دمه !

« إنهم فى فاس يطلبون التخلص منك هنا ، كما تخلصوا من صاحبك هناك » .

وزوده بما يعينه سرا ، وجعله يرحل فى الخفاء ، وعندما شرع ابن زمرك يبحث عنه ، أقنعه العاهل بأن يتركه ، وعليهم أن يفعلوا به ما يشاؤن هناك .

هرب بن خلدون من غرناطة فى الليل عائداً إلى أرض المغرب الأفريقى ، كمن يستجير من الرمضاء بالنار ! .

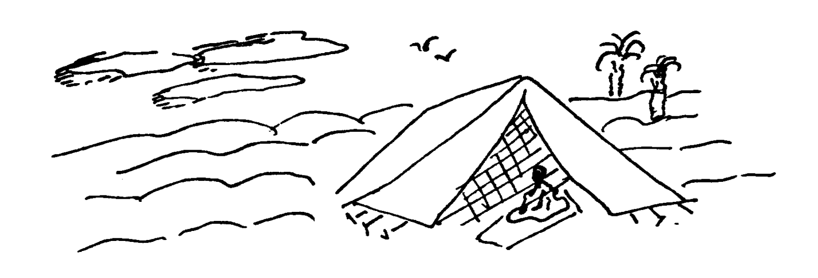
نزل بن خلدون فى "مرسى هنين" بأرض المغرب حائرا .. جزعا .. ضائعا .. لا يعلم إلى أين القصد ، واضطر أن يبقى مختفيا ومتنكرا أياما ، يقلب فى حياته وما آلت إليه ..

يزفر بالألم والضيق ، لعله فى لحظات اليأس تمنى إذا ما اغتالوه فى غرناطة وخلصوه من ذلك الجحيم ، أنه

يعـود إلى أرض بـاتت تعـاديه ، وبات يضـيـق بهـا. وأوشـك ماله على النفاد .. »

وأراد أن يجتمع بأهله ، وكـان يخشى أن ظهوره يكوْن نكبة عليهم .. .

* * *



الملجأ الأخير .. !

□ كان أخوه (يحيى) قد عاد إلى خدمة (بو حمو) أمير تلمسان ، لكنه كان يعرف بأن (بو حمو) كان ناقما على ابن خلدون لما فعله فى حقه مرة بعد مرة .

وعندما خاطب (يحيى) الأمير بو حمو ، بأن يسمح لابن خلدون بأن يعيش فى ظاهر تلمسان، عيشة النساك ، ويجمعه بزوجه وأولاده ، لم يرد (بو حمو) وآثر الصمت غاضبا ...

ففهم (يحيى) أن الأمير لا يرغب فيه ، فتركه شريدا فى (هنين) يمر بأيام وليال سود ، يتفكر فى حاله، وما آلت إليه أيامه ، وقد جاوز الأربعين بعدة أعوام ، ولم يجد أمامه إلا أن يلجأ إلى صديقه "محمد بن عريف" من رؤساء بنى عريف ، عزم على أن يسافر إليه ، فهو الملجأ الأخير الذى قد يحفظ عليه حياته ، كعادة القبائل إذا استجار بها أحد !

واستقبل فى القبيلة، واستمع إليه صاحبه "محمد بن عريف"، واستضافه عدة أيام ، ثم بدأ فى إقناع الأمير

بو حمو ، وقبيلته من مؤيديه ، وهى التى عضدته وأعادت إليه أمارته على اثر ثورة ابن عثمان على ابن غازى ...

ومازال بن عريف يقنع الأمير (بو حمو) ويذكره بجهود ابن خلدون معه ، ويهون عليه قفزته إلى الخصوم ، وبأنه رجل أعزل لا يملك إلا لسانه ، وليس لديه جيش يعيده إلى مكانته إذا فقدت مثل الأمراء والسلاطين »

وقال للأمير :

« ماذا سيفعل ، وانت قد انكسرت وظهروا عليك إلا أن ينجو برأسه إلى حين ؟ .

وأمكن لصاحبه «محمد بن عريف» ، أن يؤثر على أمير تلمسان ، فيسمح له بالقدوم إليه ، وعفى الله عما سلف !

* * *

ابن خلدون يستعيد نفسه !

☐ قدم بن خلدون إلى تلمسان في عيد الفطر ٧٧٦هـ واحتفالات العيد قائمة ، إستقبله الأمير بترحيب،ولم يعاتبه مكتفيا بما دار بينه وبين صاحبه محمد بن عريف ، وأراد أن ينقطع بن خلدون للدرس والقراءة واستكمال (مشروعه) الذى بدأه ، ولحقت به أسرته من فاس إلى تلمسان .

لكن (بو حمو) انتدبه مرة أخرى ليدعو له بين القبائل،فأضطر أن يتظاهر بالقبول مرغما ، وكان قد عاف السياسة،لكنها تلاحقه كالمرض،تداهمه،وهو لا يطيق !

فما كاد أن يغادر تلمسان حتى ولّى مقصده إلى الصحراء،وسار إلى أحياء (بنى عريف) فنزل عندهم ولحقت به أسرته ، وعندما طلبه (بو حمو) تعلل بالمرض والوهن واعتذر عنه بنى عريف الذين اكرموا وفادته وإقامته بينهم ، فخصصوا له أحد قصورهم فى

(قلعه سلامة) من أعمال توجين (تقع جنوب اقليم قسنطينه على نحو مائة ميل من حدود تونس) ، وفى هذا المقر النائى المنعزل ، انقطع بن خلدون لمدى أربعة أعوام ، نَعم فيها لأول مرة بالاستقرار ، وهو فى هذا العمر يقترب من عامه الخمسين ، كان لديه الكثير مما يشغل ذهنه ، ويمكن تمحيصه واستخراج ما يقع موقع القبول من تفكيره ، كان لابد وان يبتعد عن صراعات السياسة التى غرق فيها إلى اذنيه،فعرضت حياته إلى مخاطرها ، وفى قلعة سلامة استكمل مؤلفه التاريخى الكبير .

وكان قد قطع نحو ربع قرن يخوض فى معترك الحياة السياسية ويعانى من الثورات والاضطرابات ، متقلباً فى خدمة العروش ، يدرس شئونها ونظمها ، ويستقصى سيرها واخبارها ، ويضيف إلى معايشاته تلك المطالعات فى خزائن العروش والقصور من الكتب النادرة لكتّاب من المغرب والمشرق ، كما كان كداعية يجوس خلال الهضاب والصحارى المغربية ، يتغلغل بين القبائل ويدرس طبائعها وأحوالها وتقلباتها فى الحياة الخاصة والعامة .

وكانت عزلة مباركة ، ففى ذلك المقام النائى المنعزل ولعدم وجود مصادر كافية ينقل منها،ويعلق عليها بحاشيات كما يفعل من سبقوه .

عمل على التفكير فيما بين يديه ، وكتب مقدمة كتابه .. استغرقت منه خمسة شهور .

لقد اخضع كل الوقائع التاريخية والمشاهدات والأحداث للفحص والتقليب ، ثم للتعليل والبحث عن الأسباب ، وجعل من بناء التاريخ شاهدا ، وبدأ يتسلقه من تحت إلى فوق ، ثم عاد وجعله مقسوما فى عدة مواضيع ، كل موضوع منه يستحق النظر وحده ، وأخذ يشمله بالنظر مع المواضيع التى تتصل به والأحداث التى ترافقه !

وإذا به فى هذه المقدمة يفلسف التاريخ ، ويلهم تلك المباحث والنظويات التى كتبها فى شئ من العلم ، لتتبوأ مكانة رفيعة بين ثمرات التفكير الإنسانى .

وابن خلدون ، لا يدرى أنه يهب لتراث وذخائر الأمة العربية الإسلامية ذلك الأثر الخالد الذى مازالت تزهو به وتتفاخر جميع العواصم العربية والإسلامية .

وقام بن خلدون بالتهذيب لما كتبه ، ويقول لزائريه من بنى عريف (لقد أكملت المقدمة على هذا النحو الغريب الذى اهتديت إليه فى تلك الخلوة ، فسالت فيها شآبيب الكلام والمعانى على الفكر حتى امتخضت زبدتها وتألفت نتائجها) .

ثم شرع بعد ذلك يجمع تاريخه ، فكتب تاريخ المغرب والدول البربرية ، واعتذر لأصحابه بأنه ليس على علم كاف بتاريخ المشرق وأممه (وأن الأخبار المتناقلة لا توفى كافة ما أريده منه) .

لكنه عاد وكتب تاريخا للبشرية عامة ، ولما كانت تنقصه المراجع والمصادر فقد اعتزم العودة إلى وطنه تونس ليتهيء له فى مكتباتها الغنية فرصة المراجعة والتحقيق .

كان ذلك فى أواسط عام ٧٨٠ هـ ، وكان على عرش تونس السلطان (بو العباس) الذى كان أميرا لقسنطينه وانتزع منه (بجاية) عندما كان عليها ابن عمه ، وقد قتل ابن عمه ، وأفلت وزيره ابن خلدون ، ثم سخط عليه وحاول اعتقاله ففر منه إلى بسكرة .

حاول ابن خلدون أن يتخطى تلك الأحداث التى طوتها الأيام عندما كتب إلى السلطان الحفصى (ابو العباس) بأن يسمح له بالعودة إلى مسقط رأسه ، وقد عمل بالتاريخ ويرجوه الصفح، وأن يُمكنه من كتابة تاريخ بنى حفص كملوك وأمراء ، وأنه سيشتغل بالكتابة والدرس وليس بالسياسة ، ويحتاج إلى القرب من خزائن الكتب فى تونس لزوم البحث مع ما يكتنفه من حنين للوطن ومنزل أهله ، فرد عليه السلطان بالقبول والصفح وأنه سيسعد باستقباله !

* * *



عودة بن خلدون إلى مسقط راسه

□ غادر بن خلدون أحياء بنى عريف واجتاز الصحراء ومر فى طريقه بقسنطينه ، فاستراح فيها حينا فى ضيافة الأمير إبراهيم بن السلطان بو العباس (سلطان تونس) .

وكان السلطان وقتها بظاهر (سوسة) على رأس جيشه يخمد فتنة للخوارج على حكمه !

فأثر بن خلدون الذهاب إليه فى معسكره هناك فى سوسة .

حياه السلطان أجمل تحية ، وبالغ فى إكرامه وقربه وشاوره فى أموره ، ثم بعثه إلى تونس ، وأصدر أوامره بتوفير ما يجب لمسكنه ومعاشه ، فتهيأت لابن خلدون إقامه مريحة فى تونس ليستكمل مؤلفاته .

وقد عاد ابن خلدون إلى الأماكن التى غادرها شابا دون العشرين ، عاد إليها وهو فى سن ثلاث وخمسين ،

واستقدم أسرته.فقدمت من أحياء بنى عريف ، وأقام فى دعة وأمن بتونس .عاكفاً على الدرس والبحث .

وقد عاد السلطان إلى قصره بعد عدة أشهر ، وأدناه منه وأختصه بمجلسه ، فشرح له بن خلدون شيئا من مؤلفه ، وكلفه باكمال مؤلفه ، وأن يتفرغ لذلك فى تونس.وأبلغه بأنه سيسعد بالأطلاع عليه منسوخا فى القريب .. ! .

وانشغل بن خلدون فى القراءة والإطلاع والكتابة وانقطع عن مجالسة السلطان .

بينما السلطان أضفى عليه فيضا من رعايته ، لكن هذا لم يسعد بعض الفقهاء والعلماء فى مجلس السلطان ، فقد هونوا من شأن مؤلف بن خلدون ، واستغربوا طريقته فى الكتابة التى لا تتبع آثار الأقدمين ، واشاعوا عن صداقته لابن الخطيب الذى كفر ، وأن مبعث كفره كانت فى آراءابن خلدون !.

كما أشاعوا كثيراً من الإشاعات حوله فى شئ من الغيره والحسد ، وابن خلدون لا يجهل ما يحدث فى تلك المجالس وفى دهاليز القصور من مؤامرات .

وكان خصمه في هذه الدسائس ، والذى يقود ضده حملة الكراهية ليباعد بينه وبين السلطان بو العباس ، هو الفقيه "بن عرفه" - شيخ الافتاء - الذى رأى بحلول ابن خلدون في تونس إضعافا لمكانته ، وقد صار ابن خلدون مقصد العلماء، ومثار حديثهم، في كل ما يقوله أو يكتبه ، يسعون إليه فلا يبخل عليهم بعلمه ووقته . ورأى أنهم يقرون علمه فيقصدونه للفتوى حتى تلاميذ ابن عرفه ، إذا ما اختلفوا حول اجتهاد استعانوا بما يقوله ابن خلدون ، فأحفظه هذا عليه ، وأخذ يسعى ضده عند السلطان، ومعه رهط ممن يتبعون خطواته ويغدق عليهم ، وكان ما لفت نظر عاهل تونس ما وصله من أن بني خلدون عصبة، لا تهدأ ويستقر لها قرار إلا بالرئاسة ... !

وأن شقيق بن خلدون هو وزير تلمسان ، فما الذى يبغيه رجل دولة ، كانت له بجاية ، في أن يدّعى بشغل العلم وكتابة السيَر ، إلا أن يكون هذا ستاراً ولعبة من ألاعيب صانع الدول؟ وذكر بن عرفه عمداً صناعته لابن عبد الله - وزير فاس القوى - والقضاء على ابن مرزوق الوزير المستبد القوى ، تلك الحادثة القريبة من أذهان

الناس ، كما أن علاقة بن خلدون بالقبائل تطيعه وتبدل ولاءها وكأنها تبدل ثيابها من أجله !

وأمكن لابن عرفه هو وأعوانه أن يدخلوا الخشية فى قلب السلطان بو العباس ، الذى كان يعانى من خروج البطون والقبائل وبعض البيوت عليه ، ولا يكف عن محاربتها .

وكادت هذه المساعى أن تسفر عن جفوة بينه وبين سلطان تونس، لولا أن ابن خلدون أتم نسخة أولى من مؤلفه ، رفعها إلى مولاى السلطان ابى العباس ! » وكان ذلك أوائل سنة ٧٨٤ هـ ، وكانت تشتمل على أخبار البربر وزناته ، وتاريخ العرب قبل الإسلام وبعده ، وتاريخ الدول الإسلامية المختلفة ، وانتهى إلى أخبار الدول المغربية فى عصره ، حتى استرجاع السلطان ابى العباس لعرش تونس ، وتوقف بعد إيضاح أعمال هذا السلطان وجهاده العظيم فى ٧٨٣ هـ .

وأسعد السلطان بما وصفه به ابن خلدون ، وتيقن بأن ما يثيرونه ضده ما هى إلا حثالة نفوس ضعيفة لا تجد الهمة على العمل الجاد ، وتخشى على مناصبها وما

بين يديها ، فأصم أذنيه عن تلك الأقاويل.وأحال العلماء أن يتدارسوا ما كتبه ابن خلدون ويعقبون عليه بالكتب والقراطيس ، لا بالأقوال المرسلة التى لا تفيد .

وانغمس ابن خلدون فى اضافة أقسام أخرى لتاريخ الدول الإسلامية فى المشرق ، وتاريخ الدول القديمة والدول النصرانية.كما أنشد السلطان قصيدة عندما أحتفى العاهل التونسى بكتابة .. قال فيها :

« هل غير بابك للغريب مؤمل

أو عن جنابك للأمانى معدل

هى همة بعثت إليك على النوى

عزما كما شحذ الحسام الصقيل

متبوأ الدنيا ومنتجع المُنا

والغيث حيث العارض المتهلل

* * *

أرح الركاب فقد ظفرت بواهب

يعطى عطاء المنعمين فيجزل

لله من خلق كريم فى الندى

كالروض حياة ندى محضوضل

هذا أمـير المؤمنـين أمامـنـا

فى الدين والدنيـا إليـه الموئـل

هذا ابو العباس خـير خليفـة

شهدت له الشيم التى لا تجهل

* * *

فـأغـدق عليـه سلطان تونس، وادناه منه، وصـار يستشيره ويعمل بنصائحه .

• وأخذ بن خلدون يعمل فى دعه . لكن هذه الدعه التى ظللت بن خلدون بظلالها الطرية ما لبثت أن انقشعت وغشيها حرارة الكدر ، فما زال (ابن عرفه) وأعوانه فى مسعاهم خشية أن يرقيه السلطان حاجبا له .

لكن هذه المساعى لم تفقد بن خلدون عطف السلطان بل زادت فى التصاقه به ، فقد كان عاهل تونس يقدر علمه وآرائه الصائبة ، وأن منافسوه يحقدون على سعه علمه وانجازه لمؤلفه الكبير .

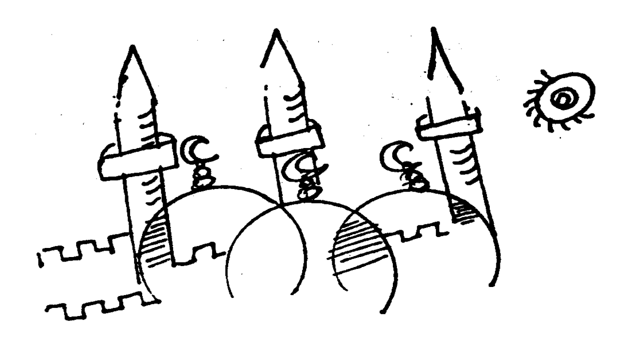
والسلطان حينما يتأهب للخروج بجيشه لمقاتلة

الخوارج عليه.صار يصحب بن خلدون فى ركابه ، يأتنس به،ويركن إليه وقت الشدة ، فيصدع بن خلدون للأمر مكرهاً !

وكانت نفس بن خلدون قد عافت السفر والمشى فى ركاب الجيوش والترقب فى المعسكرات للأنباء والنتائج ، وتلك الأخطار التى تعطل عمله ، فهو لم يعد شابا ليتحملها أو يسعى إليها من أجل مغنم .

ولما اتمت الحملة أعمالها ، كان يتوق إلى العودة لأحضان ضيعته بجوار تونس ، والاستمتاع بالأيام المتبقية من العمر ، لكن السلطان لا يكف عن الخروج على راس جيشه لمطاردة الخارجين عليه ، ولا يطمئن أن يضع على رأس جيشه رئيس أو وزير ، وكأنه بات يخشى حياة القصور وسموم الطعام والوثب عليه نائما لتعمل فى بدنه السيوف .

كان قاتلا لابن عمه أمير بجاية ، ولعل هذه الروح التى ازهقها كانت تطارده ، وكان بن خلدون قد ضاق باصطحابه الدائم ، وتعجب بينه وبين نفسه ، إن ضاق به السلطان وأبعده أزعجه ذلك ، وإن قربه قربا شديدا أزعجه ، وهو الذى أتى تونس ليستقر للكتابة والدرس ، وكفاه ما لاقاه من أهوال السياسة !



فكرة الهروب إلى الأراضى المقدسة

□ لم يظفر بن خلدون بتلك الأمنية التى يتمناها طويلاً ، ها هو يقوم بما يشبه منصب الوزير المستشار فى كل كبيرة وصغيرة ، وقد صار فى العقد السادس ، وصار يضيق بالرسميات ، وذلك التأهب الدائم والشحذ النفسى فى حضور السلاطين والكبراء .

فخطر له أن يلتمس من السلطان ، أن يأذن له فى أداء فريضة الحج ، وأراد السلطان تأجيل سفره إلى أعوام مقبلة قد يتهيأ فيها هو أيضاً للحج ويلازمه .

لكن بن خلدون ألح عليه بأنه كالأفيال.قد يتحسس زمن موته فيذهب وحده إلى قبره ، وأنه وهو فى رحاب الأرض المقدسة ، وحضرة الرسول الكريم (صلي الله عليه وسلم) سيدعو له بالنصر والتوفيق على أعدائه ، فأذن له بعد تضرعات ، وأخلى سبيله .

غادر بن خلدون وطنه ومسقط رأسه مودعا من زوجة وأولاده ورجال بلاط العرش ، وقد أقاء عليه السلطان ، وكأنهم يودعون وزيرا لعرش تونس ! .

لقد غادر ضيعته وهدوء حياته على كره منه ، كان يريد الابتعاد عن تونس والمغرب كله ، وكان يود أن يجد الهدوء وراحة البال فى الأراضى المقدسة ، يبحث عن الراحة التى أوصاه بها والده ، وبأنها قرين العلم والتفقه ، تلك الراحه التى يتمناها فلا يجدها ..

وكان ينشد اللقاء بفقهاء وعلماء وكبار الرؤساء فى المشرق-يطلع على خزائن الكتب فى أقطارهم هناك ، واعتبر سفرته إلى المشرق بعثة علمية أخرى ، يجد فيها الإجابات عن أسئلة كثيرة مثارة فى ذهنه !

خرج ابن خلدون إلى مرسى السفينة فى حفل مؤثر من الأعيان والفقهاء والأصدقاء ، يودعونه ويتمنون له الحج المبرور والعود المغفور ، وكان ذلك يتم بين مظاهر من السرور والحزن ، واختلاط فى المشاعر .

وكان ابن خلدون وهو يودع تونس وتبتعد به السفينة عن المرسى ، قد عزم فى قرارة نفسه أن لا يعود إلى المغرب الذى ضاق به ، وفيه الذين ضاقوا منه .

كان ذلك فى نهاية يوم من منتصف شعبان عام ٧٨٤ هـ (أكتوبر ١٣٨٢ م) ، وكان قد ودع الأهل

والولد وشعور بالراحة الحزينة يغوص فى أعماقه كسكين ! .

ها هو يهرب من السياسة بعيداً ... !

كانت سفرته إلى مصر كالغريق الذى يمسك بقطعة من الخشب ، طافية بجانب يده ، يستعين بها على تلاطم الموج الجارف !

* * *

• لكن .. ماذا حدث لابن خلدون فى مصر ومع سلطانها وقضاتها ووزرائها.. ؟؟

وابن خلدون قد شغل المناصب العليا فى القاهرة ، وكان ندا للعلماء والوزراء المتنافسون معه ، وقابل (تيمور لنك) فى حصارة لدمشق . هل كان يأمل أن يوليه عرشاً .. ؟ .

السياسة كانت تطارد بن خلدون فى كل مكان وحتى أخر يوم فى عمره .

وكان لا يزال فى عمرابن خلدون بقية ، وكارثة ، ومغامرة ، وصراعات ، وطموحات خاصة ، عندما طلب

أن يدلونه بالحبال من خلف أسوار قلعة دمشق المحاصرة ليلتقى بتيمور لنك .. !

* * *

قصة بن خلدون فى مصر لها أبعادها المذهبية والسياسية المختلفة ، ستبدأ بكارثة ، عندما يستدعى زوجته وأولاه من تونس ليلحقوا به فى إقامته بالقاهرة ، وقد صار قاضيا لأحد المذاهب الأربعة ، لكن ذلك لا يتم إلا بصعوبة شديدة.ووساطات من أمراء المماليك .

فقد غضب عليه سلطان تونس واحتجز أولاده عنه ليرغمه على العودة .

بينما تمسك به سلطان مصر المملوكى ، وعندما تتوسط الوساطات له ، وتتم الموافقة على سفر أولاده إليه مع زوجته وأغراضه التى طلبها، كتبه وقراطيسه ، إذ أنها كل ثروته .

يأمل فى بداية حياة أسرية هانئة فى مصر ، أو الشام عوضا عن الهدوء الذى عاشه فى غرناطه . إذ

تأتية الأنباء بوقوع حادث غرق السفينة التى تحمل أولاده وأغراضه ، كارثة يمكن أن تطيح بصواب أى عاقل لجسامتها .

نعم كان ينتظر استقبالهم فى الاسكندرية ...

وطال انتظاره ...

ولعله بقى ينتظرهم حتى وافاه الأجل فى مصر .

* * *

عبد الفتاح مرسى

سيدى بشر - الاسكندرية

١٩٩٩

المراجـــع

* ابن خلدون – حياته وتراثه الفكرى – محمد عبد الله عنان دار الكتب المصرية ١٩٣٣ .

* تراجم إسلاميه شرقية واندلسية – محمد عبد الله عنان .

* تاريخ بن خلدون والمقدمة – دار الكتب المصرية .

* تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين – ترجمة محمد عبد الله عنان .

* دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس – الاسكندرية ١٩٦٨. والموحدون والوحدة الإسلامية – الإسكندرية ١٩٦٨ – أ. د أحمد مختار العبادى .

* تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس – الاسكندرية ١٩٧١ .

* تاريخ المغرب العربى الكبير – د. عبد العزيز سالم – الاسكندرية ١٩٧٠ .

* تاريخ المغرب العربى – د . سعد زغلول عبد الحميد – دار المعارف ١٩٦٥ .

* وما تصادف وقوعه فى يدنا من دوريات وصحف .

الكاتب

- عبد الفتاح مرسى
- ليسانس آداب (تاريخ) جامعة الأسكندرية - دبلوم عام من كلية التربية جامعة الأسكندرية.
- عضو عامل باتحاد كتاب مصر
- مقيم بالأسكندرية ت: ٠٣/٥٤٨٨١٥٢

كتب صدرت للمؤلف

*رواية – على حافة النهار ١٩٩٣ الثقافة الجديدة
*رواية – الدحديرة ١٩٩٤ على نفقة المؤلف
*رواية – المحسوس والملموس ١٩٩٥ المجلس الأعلى للثقافة
*رواية – المقطوع والموصول ١٩٩٦ كتاب فاروس
*مجموعة قصص – شهوة الموقف المتحرك ١٩٩٧ دار الوفاء لدنيا الطباعة
*دراسة – الفن فى موكب الوعى ١٩٩٨ دار الوفاء لدنيا الطباعة
*رواية – المسخوط من سيرة على بلوط ١٩٩٨ دار الوفاء لدنيا الطباعة
*رواية – الليل وجبروته ١٩٩٩ دار الوفاء لدنيا الطباعة
* رواية - الاحجار فى الرمل ١٩٩٩ دار الوفاء لدنيا الطباعة

- قصص [قبلات محطات السفر] الفنون والآداب ٢٠٠٠م
- رواية [أكثر من عمر] الكتاب الفضي ٢٠٠٢م
- قصص [أقنعة الصفاقة المدهشة] دفقات للنشر ٢٠٠٣م
- رواية [تلطيمة ابن خليل] دفقات للنشر ٢٠٠٣م
- قصص [العكاكيز] دفقات للنشر ٢٠٠٣م
- رواية [إنعطاف النهر] هيئة الكتاب ٢٠٠٣م
- رواية [عبدالله والمدينة] دفقات للنشر ٢٠٠٥م

الجوائز :

- الميدالية الذهبية وشهادة تقدير من وزارة التربية والتعليم – الإقليم الجنوبي – كتاب عيد العلم – عام ١٩٦١م
- المركز الأول – ميدالية ذهبية وشهادة تقدير – ماراثون القصة – إبداعات القادة – جهاز الشباب والرياضة ١٩٩٦م
- المركز الثاني في الرواية – بنادي القصة بالقاهرة لعام ٢٠٠٠م عن رواية " نغدا تأكل التفاح " – شهادة تقدير وجائزة مالية .
- المركز الثاني في القصة القصيرة عام ٢٠٠١م عن قصة "صرصار جاف يتحرك" نادي القصة بالقاهرة – جائزة مالية وشهادة تقدير .
- المركز الأول في الرواية من نادي القصة بالقاهرة عن رواية " أكثر من عمر "طبعت الرواية بسلسلة الكتاب الفضي.
- شهادة تقدير عن مجموعة قصص " العكاكيز " – المجلس الأعلى للثقافة – عام ٢٠٠٣م

كتب صدرت عن دفقات للنشر:

١- العكاكيز- قصص- عبد الفتاح مرسى.
٢- تلطيمة ابن خليل- رواية- عبد الفتاح مرسى
٣- أقنعة الصفاقة المدهشة- قصص- عبد الفتاح مرسى
٤- صحراء الذهب- قصص- حميدة راقم.
٥- عبد الله والمدينة- رواية- عبد الفتاح مرسى.
٦- للبحر حالات- رواية- عبد الفتاح مرسى
٧- رجل الخوف- مسرحيتان- شريف محى الدين
٨- العمامة والتاج- رواية- عبد الفتاح مرسى